حكايات مسافر

مصطفى محمود





الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الليالى الحمراء فى ألمانيا



ألمانيا بلاد مهذبة جدّا .. كل شىء فيها يتم وفقًا لجدول .. وبرنامج .. وحصص محددة .

وفى خلال خمسة أيام متتالية من رحلتنا كانت كل حصصنا مصانع ..

كنا نصحو على مصنع .. ونفطر على ورشة .. ونتغدى على شركة .. ونتعشى على منجم ..

وبدأت أشعر بالغيظ ..

أليس فى ألمانيا حصص للتسلية ..

كنت قد مللت من الفحم والحديد وطفح بى الملل .. وبدأت أعرب لمرافقنا الرسمى عن إعجابى العظيم بألمانيا وصناعاتها ..

وكنت أقول له كل يوم خمس مرات .. إن ألمانيا رائعة .. وإنها أثبتت أنها لن تموت .. وإنها انتصرت على أعدائها ..

وكان يجيبنى بابتسامة مهذبة قائلا :

– هذا قليل من كثير يا سيدى .. وغدًا سوف ترى فى مصانع « اسن » ماذا فعلنا .. سوف ترى مليار طن من الخردة يذوب أمام عينيك .. ويتحول إلى أنهار من الحديد السائل .. ثم يخرج من طرف المصنع أنابيب وأسياخًا

وألواحًا وشرائح .. وسوف ترى الألواح فى كولونيا تتحول إلى عربات أنيقة .. وسوف ترى فى باديش الهواء يتحول إلى سماد .. إنك تستطيع أن تتصور مدى ما بذلنا من جهد إذا اطلعت على أرقام إنتاجنا الأخيرة ..

ويضع يده فى جيبه ويخرج خريطة ورسومًا بيانية وإحصاءات يبسطها أمامه ويبدأ فى تلاوتها :

– ٣ ملايين طن كذا وكذا فى شهر كذا ..

– ٥ مليارات من الأطنان كذا فى شهر كيت وكيت .

– تسعون ألف قطعة فى سنة كام وفى سنة كام . وأحنى رأسى انحناءة غاية فى التهذيب وأنا أؤكد له أن هذا ما أتصوره فعلا .. وأن ألمانيا قد أصبحت عميدة الصناعة فى العالم .. ثم أردف فى خجل قائلا :

– ولا شك أن الصناعة ليست كل شىء فى ألمانيا .. ولابد أن ألمانيا تقدمت فى كل فن .. حتى .. حتى فى السينما مثلا ..

– ها .. ها .. السينما .. والراديو .. والتلفزيون أيضًا .. إن عندنا صمامات تستطيع أن تلتقط كذا ذبذبة فى الثانية .. وتستطيع أن تعمل على كذا موجة فى وقت واحد .. والإحصاءات الأخيرة تدل على ..

ويخرج خريطة الرسوم البيانية والإحصاءات ويبدأ فى التلاوة من جديد . فأقول فى استسلام :

– رائع .. رائع .. عظيم .. مدهش ..

وقد ظللت شهيد هذه الإحصاءات مدة خمسة أيام متوالية حينما فهم الألمانى اللبيب غرضى فجأة . فقال لى وهو يربت على كتفى :

– ها .. أنت تريد أن تلهو ؟ ..

فقلت فى استنجاد :

– ها .. ها .. أرجوك ..

وربت على كتفه وربت على كتفى وتبادلنا النظرات الجانبية والضحك لأول مرة فى الرحلة .. ثم مال على هامسًا :

– سوف آخذك إلى أرقى مقهى فى دسلدورف .. إلى البلاديوم ..

– رائع .. أشكرك .. سوف يساعدنى هذا كثيرًا على فهم المصانع ..

وتصافحنا فى ود عميق ..

* * *

وفى المساء كنت أجلس إلى جواره فى صالة ملهى أنيق حول بيست رقص ومسرح متحرك .. وكنا نحن الاثنان الشابين الوحيدين فى الملهى كله .. وكل من حولنا من العجائز ..

وفهمت أن صديقى مبالغة فى الحفاوة بى قد صحبنى إلى

أغلى كباريه فى دسلدورف .. وهو كباريه يذهب إليه أصحاب المصانع فقط ليشاهدوا نوعًا راقيًا جدًّا من اللهو .. نوعًا يشبه الفلسفة عندنا .

واستسلمت لقضائى ورحت أنظر إلى الوجوه الكهلة والشعر الأبيض والظهور المحدبة .. وأتأمل الفراء والمجوهرات وثياب السهرة ..

وكانت الوجوه الجميلة الوحيدة هى وجوه الخادمات ..

وبدأ المسرح يعرض نمرًا عالمية .. وبدأت أتفرج وأنسى نفسى ..

وفى منتصف الليل وأنا أصغى إلى موسيقى فاترة حالمة .. وقد خفتت الأضواء .. أخذتنى شطحة فلسفية .. ومررت بلحظة اختلط فيها إحساسى ، وخيل إلىَّ أنى فى القاهرة على إحدى موائد الأوبرج .. أنظر إلى وجوه أليفة من عجائزنا الأغنياء فى ثياب السهرة وأصغى إلى بيبى المانزا ..

لم تكن توجد فروق كافية تجعل من ألمانيا .. ألمانيا ..

كنت أحس بالإنسان وقد سقطت عنه البطاقة التى تحدد مكانه على الأطلس فأصبح مجرد شخص يمكن أن يكون أنا أو أنت أو هو أو هى .. أو أى إنسان ..

وكنت أحس بأن كل الأطفال يمكن أن يكونوا أطفالى .. وكل العجائز يمكن أن يكونوا آبائى .. وكل

الدنيا يمكن أن تكون وطنى ..

وكنت أحس بالراحة العميقة ..

ولم أفق من هذا الإحساس اللذيذ المخدر إلا حينما اقترب الجرسون ووضع يده على كتف صديقى قائلا فى لهجة ألمانية صرفة :

- هر فالك ..

ففتحت عينى على الواقع فجأة .. وتذكرت البلاديوم .. دسلدورف .. والمائدة التى أجلس عليها .

وأحسست أن الجغرافيا علم قبيح يجعل من العالم مائة دولة ومائة لغة ومائة جنسية ..

وكان الستار يسدل على آخر فصل فى البرنامج وصديقى يقول هامسا :

- سهرة جميلة ؟..

وكنت أتثاءب كأنى قائم لتوى من قراءة كتاب طويل .. وكانت هذه أولى محاولاتى للهو فى ألمانيا العابسة المهذبة ..

وفى الصباح الباكر كنا نهرول إلى مصانع الهل ، ثم نركب إلى مصانع فورد ، ونطير إلى كروب وباديش ومرسيدس ..

وبعد خمسة أيام أخرى كنا نحط رحالنا فى ميناء هامبورج ..

وفى هامبورج كانت فى جدول الرحلة خانة خالية .. سألت عن معناها فقالوا لى إن معناها نصف يوم بدون برنامج .. تقضيه على كيفك !

وتنفست الصعداء ..

ست ساعات على كيفى .. بدون مصانع .. وبدون كباريهات محترمة ..

وكان أول شىء فعلته أنى تخلصت من الموكب الرسمى .. وسرت وحدى !..

سرت لمدة ساعة فى الشوارع وأنا سعيد .. وكان شكلى بشعرى الأكرت وشفتى الممتلئتين مصيدة للابتسامات فى طول هامبورج وعرضها ..

وكان كل ألمانى ينظر إلىّ ويبتسم .. وكل ألمانية تغمز لى بعينيها وتضحك ..

وفى دكان للسجائر .. وقفت أشترى شيكولاته .. وقال لى البائع بالإنجليزية الركيكة :

– أنت من الهند .. أليس كذلك ؟..

– بالضبط .. من أحراش الهند .. من الغابات التى يسكنها القرود ..!

– ها .. ها .. لقد خمنت هذا ..

وشد على يدى وهو يهنئ نفسه على ذكائه :

– منذ متى وأنت فى ألمانيا ؟..

– منذ أيام معدودة ..

– جو بارد .. أليس كذلك ؟..

– آه .. ولكنه منعش ..

ومال على أذنى هامسًا :

– ويمكنك أن تجعله منعشًا جدًّا .. عليك بكوب من البيرة وحورية فى لون الفل .. هل تعرف شارع الريباربان .. إنه هناك من على الناصية .. اذهب ولا تضيِّعْ ليلتك .. إنك تجد فى شارع الريباربان كل شىء .. إنه بوليفار ألمانيا .. فقط تذكر هذه النصيحة .. لا تقل لفتاة ألمانية أنت بيضاء مثل اللبن وخدك تفاحى فهذه شتائم عندنا .. فاللبن والتفاح هما أرخص الأشياء فى ألمانيا ..

قل لها أنت سمراء وكحيلة وعيونك سود ..

وشكرته ، ورحت أبرطع إلى شارع الريباربان ..

وكان المساء قد أقبل .. والجو قد تحول إلى صقيع .. ودخلت فى معطفى الواسع .. وأغلقت بابه الذى يشبه باب المخبأ ..

وفى شارع الريباربان وجدت صفين من الملاهى بطول الشارع الضيق .. وعلى كل ملهى يقف رجل فى زى كرنفال يقوم بالدعاية للبرنامج بخمس لغات .. ويصيح كأنه يصيح على مزاد ..

عرايا من كل نوع ..
لوحات حية لا تنسى ..
ساعات من العمر هى أجمل ما فى العمر ..
تعال إلى جناتنا يا صاح .. واترك همومك على الباب ..

وفى ركن مظلم كان هناك رجل مريب ذو لحية يهمس إلى كل عابر سبيل :

- إن الكباريهات لا تغنى ولا تسمن .. ولا فائدة فى عرايا لا تلمسهن بيديك .. تعال معى أنا وسأصحبك إلى ما هو أشهى من الجنة ..

كان الشارع يشبه شريطًا رفيعًا من باريس وسط هامبورج . وكان كل شىء ممكنًا فى هذا الشريط الضيق ..

كانت هناك سينمات تتفنن فى عرض الجنس .. ومسارح تتفنن فى عرض الغزل بين النساء .. ومشارب للبيرة الرديئة يختلط فيها الجنسان فى تبذل .. وأندية للقمار .. وحانات لتبادل الصفقات المريبة ..

وخيل إلى وأنا أسير أنى عبرت حدود ألمانيا بدون باسبورت ..

كانت كل الوجوه حولى غريبة ..

وجوه زنوج ويابانيين وصينيين وروس وإنجليز وفرنسيين وأمريكان .. وليس بينها وجه ألمانى واحد ..

كان الشارع من أجل السواح فقط .. حتى الممثلات

والراقصات كن من الأجانب ..

وأدركت بعد ساعات من التسكع فى هذا الشارع إنى لا أتفرج على ألمانيا .. وانما أتفرج على نفسى .. على الصورة التى فى ذهن الألمان عنى وعن السواح من كل الألوان .

وقطعت تسكعى وأخذت « تاكسى » إلى الفندق .. وفى الطريق سألت السائق :

- ألا يوجد فى بلادكم هلس ؟

- ماذا تعنى بالهلس .. إن البنت عندنا حرة تفعل ما تشاء قبل الزواج .. وليس هذا هلسًا ..

- ماذا تسمونه إذن ؟..

- إننا لا نسميه شيئًا .. إنه حياتنا فى يوم الأحد ..

- إنه يوم سعيد يوم الأحد .. تذهبون فيه إلى الكنيسة فى الصباح .. وإلى عشاقكم فى المساء ..

وضحكت .. وضحك السائق دون أن يفكر ..

وتوقف التاكسى عند الفندق .. ونزلت وأنا أفكر فى الشعب الألمانى الدقيق والمنظم جدًّا ..

شد الحبل فى هامبورج

هامبورج .. فندق الأتلانتيك فى أواخر شتاء عام ١٩٥٧ ..

والهواء يقطر بالثلج والدخان المتصاعد من مدخنة الفندق يرتجف كأن به قشعريرة .. وأنا واقف فى الصالة أكتب خطابًا إلى روز اليوسف .. وإلى جوارى يقف الهر فالك الملحق الصحفى الألمانى يشد شعره ، لأن المبعوثين المصريين لا يفهمون أن هناك مواعيد .. وأن هناك ساعات يد وساعات حائط وساعات جيب .. وأوقات يتفق عليها الناس ويلتقون فيها بالدقيقة واللحظة ..

– إن أدق ميعاد عندكم هو الساعة كذا .. أى كذا .. لا فرق بين ساعة قبل أو ساعتين بعد ..

يقول هذا ويشد شعره ويكز على أسنانه وأنا أنظر إليه ببلاهة .. ثم أقول محاولا أن أدارى جراحنا :

– نحن فى الشرق فلاسفة .. ولسنا كمسارية وباعة لبن وعمال خراطة وحدادة مثلكم .. ماذا يهم أن تكون الساعة السادسة أو السابعة .. اننا لا نرتزق من الدكاكين ولكننا نعيش على التأملات .. ودكان التأملات لا يغلق بابه أبدًا .. فما الداعى للعجلة ..

وأعود إلى خطابى أكتب فى « عجلة » .. بينما يصمص

الهر فالك شفتيه فى يأس وقد استسلم آخيرًا وصدق أننا فلاسفة ..

لقد وصلنا هامبورج منذ ساعتين وما لبثنا أن تفرقنا فى الجهات الأربع .. بعضنا يجرى خلف خبر والآخر يجرى خلف قصة والثالث يجرى خلف سهرة .. أما أنا فكنت أحلم بفراش وثير ونوم عميق فقد كنت متعبًا ..

ولهذا أسرعت بختام خطابى واعتذرت للهر فالك عن الاجتماع .. ثم صعدت إلى غرفتى وأنا أترنح .. وكل ما أعرفه عن الغرفة أنها رقم ٧٩ .. وأنها بالدور الخامس .. وأن معى مفتاحها ..

وبلغت الدور الخامس وسرت فى ممر طويل مفروش بالقطيفة حتى نهايته .. ثم وضعت مفتاحى فى الباب وأدرته .. ودخلت .. ولكنى فوجئت بالغرفة خاوية على جدرانها .. لا شىء فيها بالمرة .. لا فراش .. ولا مكتب ولا كرسى ؟. ولا شىء .. مجرد خرابة قائمة على جدران أنيقة .. وعدت لأتأكد من الرقم ومن المفتاح والباب .. ثم وقفت حائرًا ..

أهذا هو الكرم الألمانى .. أن ينام المبعوثون المصريون على الأرض .. فى غرفة ليس فيها دولاب أو سرير أو مكتب أو كرسى ؟.

أهذا هو النظام .. أهذا هو ؟

وصفقت بيدى فى غيظ .. ثم تذكرت فجأة أنى فى الأتلانتيك هوتيل ولست فى لوكاندة السيد البدوى ، وأن التصفيق حتى الصباح لن يجدى ..

وذهبت أبحث عن جرس حتى وجدته .. وظللت أدقه عدة مرات حتى جاء الخادم مهرولا .. وهو رجل أنيق مهندم ..

وقلت له باختصار .. وبامتعاض أيضًا .. إن الغرفة كما يرى .. ليس بها أى شىء من وسائل الراحة ..

وابتسم الرجل ابتسامة لطيفة ونظر مرتين إلى شعرى الأكرت .. ثم اتجه إلى « زرار » فى الحائط وضغط عليه فخرج سرير كامل المعدات من داخل الحائط .. واتجه إلى اليمين وضغط على « زرار » آخر فخرجت كنبة .. واتجه إلى الخلف وشد حبلا فخرج مصباح ومكتب وكرسى .. واتجه إلى الشمال وضغط على قرص فخرجت مائدة عليها راديو وتليفون ونوتة مذكرات وإعلانات وهدايا ..

وعاد الرجل ينظر إلى شعرى الأكرت ..

وابتسم .. فابتسمت فى غيظ .. وقلت له : إننا فى الشرق نفعل هذا فى السيرك .. وإننا نفعل أكثر من هذا .. نرفع أحيانًا قبعة صغيرة فيخرج من تحتها فيل ..

وضحك الخادم فى سذاجة .. وصدقنى .. وظلى يسألنى طويلا عن الشرق .. وعن السحر الأسود .. وتحضير

الأرواح .. وظللت لمدة ساعة من فرط غيظى أكذب عليه !..

وحينما تركنى كنت مازلت أدور فى الغرفة مغتاظًا .. أضغط على الأزرار فأعيد الأثاث إلى مكانه فى باطن الحائط ثم أضغط عليها مرة أخرى فأخرجه .. كما تخرج المصارين من بطن الأرنب ..

وشعرت بشىء من الاطمئنان حينما أتقنت هذه اللعبة وفهمتها ..

وبدأت أفكر فى النوم ..

وخلعت ثيابى .. ودخلت الحمام ..

ولكن منظر الحمام أصابنى بالذعر ..

إنه ليس الحمام المألوف الذى نعرفه .. ولكنه يشبه غرفة الآلات فى باخرة .. كل شبر فى الحائط فيه ماسورة ومفتاح وحنفية .. وزر .. ورافعة .. وعجلة ..

ووقفت أفكر .. وأنا أنظر إلى الحنفيات الخمس التى تصب فى البانيو ..

أنى أعلم جيدًا أن هناك حنفية للماء البارد .. وحنفية للماء الساخن .. وتبقى بعد هذا ثلاث حنفيات ..

وقفت أهرش رأسى وأقول : من الجائز أن تكون الحنفية الثالثة .. ماء بالصابون .. والرابعة للشاى .. والخامسة للويسكى ..

وكانت أمامى على رف الحوض مرآة مقعرة نظرت فيها فوجدت ذقنى مكبرة ومساحتها فدان .. وكل شعرة فيها طول شجرة ..

وفهمت أن هذه المرآة خاصة بالحلاقة الأنيقة .. لتسهل عملية اقتلاع الشعر من الذقن .. ولتتبع الموسى وهو يجرى من شعرة لأخرى .

ومددت يدى فى خوف وفتحت الحنفية الساخنة وملأت البانيو ..

ثم تمددت فيه لأسترخى وأفكر على راحتى ..

وسرى الدفء فى أوصالى .. وأحسست بالراحة وسرح فكرى فى ألف شىء وشىء .. وفجأة .. ربما بعد ساعة من السرحان .. أفقت لأرى حبلا يهتز أمامى ..

وتتبعت الحبل فوجدته مدلى من ثقب صغير فى السقف وأمسكت بطرف الحبل ..

ما فائدة هذا الحبل ؟..

إن المفروض أن يشده المستحم .. فيحدث شىء ما ..

وظلت أنظر إلى الحبل فى خوف وهو يهتز .. وأمسك به بين لحظة وأخرى لأشده .. ثم أعود فأتردد .. ثم أعود فأتركه ..

وأكتفى بالنظر إليه ..

وأخيرًا تشجعت .. وجذبت الحبل جذبة واحدة قوية ..

وانتظرت والعرق يتصبب على جسدى العارى .. وما لبثت أن سمعت خطوات مسرعة فى الممر .. ثم دارت أكرة الحمام .. وانفتح الباب .. ودخلت خادمة بيضاء فاتنة مثل القمر ..

لا شك أن شعر القراء قد وقف من الفضول ..

لا بأس .. سوف أشرح لهم بعض الأشياء ..

لقد فهمت أن الحبل سببه حوادث الغرق التى تحدث فى البانيو للسكارى الذين يعودون إلى الفندق فى آخر الليل ويفقدون وعيهم أثناء الاستحمام .. وهو مدلى عادة فى متناول المستحم ليستنجد به إذا أوشك أن يفقد وعيه .. وأنا شخصيًا فقدت وعيى .. لا بسبب السكر .. ولكن بسبب المفاجأة ..

... ...

... ...

النقط المتروكة هنا لها معنى آخر غير المعنى الذى يقصده إحسان عبد القدوس بالنقط التى يكتبها فى قصة لا أنام .. وأنا أحذر القراء من الإسراف فى الخيال .

تأملات من روما

حينما بلغت إيطاليا قادمًا من ميونيخ كنت كأنى أنزل عدة سلالم تاريخية .. وأحسست أن بين المجتمع الألمانى والإيطالى عدة درجات يهبطها السائح ..

كانت روما تبدو قديمة .. وكان نهرالتيبر يبدو كترعة الجعفرية .. مياهه قذرة راكدة ..

وكانت الشوارع ضيقة والبيوت كالحة .. والوجوه مصفرة شاحبة .. والنساء يتكلمن كثيرًا .. ويحركن أيديهن كما يفعل نساء بولاق .. والشحاذون فى كل مكان ..

وبدأت أتساءل : ما الذى يجعل روما .. هى روما ؟

وأجابتنى التماثيل فى كل شارع وزقاق وميدان ..

كانت المدينة تبدو كمتحف بدون أسوار وبدون باب .. فى كل مكان تجد تمثالا قديما ونافورة .. وفى كل شبر تجد خرابة أثرية على بابها عسكرى ..

ولو تصورت أحشاء الهرم الأكبر ، وأحشاء معابد الأقصر وقد خرجت لتحتل ميادين القاهرة الرئيسية .. وتتناثر فى شوارعها الرئيسية .. فهذه هى روما ..

إن روما هى حافظة أمينة لتاريخ الفن الرومانى ..

وكل آثار الفن الخالدة فى روما أقامتها تبرعات من جميع أرجاء أوروبا بدعوة من البابا .. ومن أجل المسيح ..

إن الفن والدين سبيكة واحدة هناك ..

فى متحف الفاتيكان تجد قصة المسيحية مرسومة على الجدران بريشة الرسامين الكبار أمثال ميكائيل أنجلو ، ودافنشى ، ورافائيل .. وتجد تماثيل للعذراء والبابوات والقديسين ..

وفى الكنائس والمعابد تجد الكهنة ، وتجد الأصنام .. وتجد أبطال الميثولوجيا الإغريقية حولك .. كأنك تقرأ فى كتاب مجسم ..

حتى الكاهن المصرى تجد له غرفة خاصة فى متحف الفاتيكان .. تقابل فيها فراعنة تعرفهم ، وملوكًا قدامى من الأسرات الأولى . لا شك أن تماثيلهم سرقت وعبرت البحر إلى إيطاليا .. ثم بيعت للبابا وللكنيسة ..

إن النحت الفرعونى شىء آخر تمامًا غير النحت الرومانى .. النحات الفرعونى فهم شيئًا جديدًا فى فن النحت لم يفهمه الرومان .. فهم جمال الكتلة فى ذاتها .. جمال الحجر المجرد .

إنك تشاهد التمثال الفرعونى من كل الزوايا فتجد أنه جميل .. وتشاهده من بعد ومن قرب .. وتتأمله وأنت لا تفهم موضوعه فترى أنه جميل ..

إنه قطعة من الحجارة جميلة فى ذاتها ، أما التماثيل الرومانية فتبدو من بعيد كأنها « لعبكة » لكثرة ما فيها

من التفاصيل والحركات ولتعدد الشخصيات فى كل تمثال .. ولابد لك من أن تقترب وتطابق بين الأثر وموضوعه وتفهم قصته لتستمتع بما فيه من فن ..

إنها تقدم واقعية سطحية تقف عند حدود الجسم وعضلاته وتفاصيله .. وتكتفى من الإنسان بحركة رشيقة أو انفعال عارض ..

أما الفراعنة فيقدمون فى نحتهم الإنسان كله .. الإنسان فى شموخه وعناده .. وفى سماته الباقية من خلف التحولات والانفعالات والحركات الطارئة ..

إن النحات الفرعونى يمسح أثر الزمن من على وجه تمثاله ويمحو من عليه كل ما هو مؤقت .. ثم يسويه فيبدو كأنه البشرية كلها فى خلودها .. وفى حركتها التاريخية العنيدة ..

وقطع النحت الفرعونى .. قطع زخرفية تكشف عن إحساس الفراعنة بالشكل والخطوط والعلاقات الهندسية الجميلة ..

لقد فهمت النحت الفرعونى فى روما ولم أفهمه فى مصر ..

وفى كنيسة القديس بطرس وجدت نفسى تحت قبة هائلة من الرخام .. وفى تحفة خرافية من تحف البناء ..

كانت صور ميكائيل أنجلو منقولة على الموازيكو .. فى

دقة وصبر مذهل .. وتماثيل الملائكة والعذارى والشياطين والبابوات تنظر إلى من الجدران ..

ودفعت ستين ليرة لأتفرج على المتحف البابوى .

ودخلت سردابًا يحتوى على أرواب وقلانس وصلبان وتيجان من الذهب .. كل تاج منها يزن بضعة أرطال .. ومصاحف مذهبة ضخمة فى حجم الدولاب .. وجواهر نادرة ..

وعجبت لهذا البذخ الأسطورى ..

كل هذا البريق الخاطف .. والذهب .. والماس .. والمجد .. والسلطان .. هى ممتلكات للبابوات الزاهدين الذين تركوا الدنيا خلف ظهورهم ..

مساكين هؤلاء البابوات ..

إن هذه التيجان الذهب حملها ثقيل فعلا ..

وفى الخارج كنت أسمع صوت التراتيل .. وكانت هناك راهبة توقد شمعة حول مقبرة القديس بطرس .. وتتمتم فى خشوع .. وكان كل الناس راكعين ما عدا أنا .. والبواب ..

وعدت وأنا أفكر طول الطريق ..

وجلست فى مقهى على الرصيف فى بيازا باربرين أمام النافورة الشهيرة وأنا أفكر أيضًا ..

كنت أفكر فى كيف تصبح القاهرة مثل روما ..

واكتشفت بعد لحظات أنى أفكر بعقلية الخديوى إسماعيل .

من السهل أن تصبح القاهرة روما فى ثلاثة شهور إذا جمعنا فننا الكلاسيكى وألقينا به فى الميادين ، ولكن هل هذا يقدمنا كثيرًا ..

إنه يجعل من القاهرة بلدًا قديمًا ومتحف ذكريات ..

ولكن التقدم شيء أكثر من مجرد متاحف ..

إن مفتاح التقدم فى هذا العصر هو الصناعة ..

إن الطبق والملعقة والكرسى والموقد والمصباح وقرص الدواء .. منتجات صناعية .

والماء والصابون والخبز والكهرباء والغاز عمليات صناعية ..

والزراعة تحولت بالمحاريث الميكانيكية إلى عمليات صناعية ..

والتعليم تحول إلى عملية صناعية حيث ينتشر الفكر والأدب والثقافة والفن عن طريق المطابع وآلات اللينوتيب والأنترتيب والتيكر والراديو والتليفزيون والسينما ..

حتى كلمة النظافة فى المدينة أصبح معناها الحقيقى صناعيًّا .. فليست النظافة سوى نتيجة ألوف الأنابيب والمجارى والبلاليع الممدودة فوق الأرض وتحت الأرض

لصرف القاذورات ..

والرجل الذى قال لى فى ألمانيا إن هناك علاقة بين الحضارة فى بلد واستهلاك مواسير الصلب فيها لم يكن مخطئًا ..

والتاريخ يكشف لنا عن العلاقة بين الصناعة والقوة .. فالشىء المشترك الذى تتشابه فيه كل المستعمرات .. أنها تعتمد كلها على الزراعة .. ومجتمع زراعى يساوى فى هذه الأيام مجتمعًا ضعيفًا ..

إن الصناعة لها معنى واسع ..

إنها تعنى الحرية .. لأن الآلة تحرر الإنسان .. وتوفر له ثمن ما يمتلك .. الطاقة والوقت والعمر .. وتحرر الشعوب بما تمنحها من القوة ..

والنظرية القائلة بأن الصناعة تؤدى إلى مجتمع آلى وإنسان آلى كاذبة من أساسها .. لأن الصناعة فى الحق تأخذ على عاتقها الواجبات الآلية .. وتترك للإنسان مجالاته الإبداعية ..

إن الحضارة تقوم على ساقين : إحداهما الكتب .. والأخرى المصانع ..

الكتب تصنع للإنسان الغايات مثل الآداب والعلوم والفنون .. وفى المصانع يصنع الإنسان الوسائل إلى هذه الغايات ..

ونحن فى حاجة إلى هاتين الساقين لنتقدم ونسبق روما وبرلين ولندن ..

كنت أفكر فى هذه المشكلات وأنا أتأمل نافورة البيازا باربيرينى التى تخرج من تمثال نصفه رجل ، ونصفه سمكة .. وأمامى طفل إيطالى يشحذ .. ويوزع النعناع على الجالسين بنفس الطريقة التى يتبعها الشحاذون هنا فى مصر .. وفى الناحية الأخرى الجرسون يطالبنى بقائمة حساب تصل إلى ثلاثة جنيهات فى مقابل فنجان القهوة ..

وكان من الواضح أنه أضاف ليرات كثيرة إلى الحساب لأن شعرى أكرت وشكلى إفريقى يغرى بالاستغفال ..

ورفضت الدفع .. وقلت إن هذا نشل علنى على قارعة الطريق ..

وقف الجرسون يرطن ويلوح بيديه ويمط بشفتيه كما يفعل الطلاينة الجرابيع فى أفلام دى سيكا ..

واجتمع الجرسونات يلوحون بأيديهم بما معناه .. أنى رجل بدائى .. لا أفهم معنى القهوة فى البيازا باربيرينى .. روما بلاد الفن والجمال ..

وقلت إنى أفهم معنى القهوة وأفهم أيضًا وظيفة البوليس الإيطالى ..

وتدلت شفة الجرسون المحتال .. واتضح أن القهوة فى

إيطاليا قابلة للفصال تمامًا مثل أسعار المناديل فى شارع الأزهر ..

وتركت المقهى .. وأنا أعد الليرات الباقية فى جيبى .. والساعات الباقية على قيام الطائرة .. وأفكر فى أرخص شىء أشتريه ..

ووجدت بعد ساعة من الجمع والطرح أن أرخص شىء .. هو التأمل .. والمشى .. والإعجاب من الظاهر .. من ظاهر الفترينات ..

ووقفت أمام فاترينة كبيرة متألقة .. أفكر .

لقد فكرت فى النحت الفرعونى .. والرومانى .. وفكرت فى الصناعة والحضارة .. والآن أجدنى أفكر على الرغم منى فى التجارة .. فى تلك المهنة الغريبة التى تربح بدون تعب ..

ما على التاجر إلا أن يسلم البضاعة فيكسب أكثر من الذى يصنعها ..

وهو يستطيع أن يتاجر فى القماش .. وفى الحديد .. ويستطيع أن يتاجر فى العملة .. ويستطيع إذا تخصص فى فن البورصة .. أن يبيع عمليات البيع نفسه .. فيكسب مليون جنيه فى لحظة واحدة بمجرد عقد صفقات وحل صفقات وبدون جهد يذكر ..

إن أى شىء تمسه التجارة يتحول إلى ذهب ..

كاتب الإعلانات يكسب أضعاف كاتب القصة لأنه يعمل فى بلاط صاحبة الجلالة التجارة ..

وبائع نوتات بيتهوفن يكسب فى اليوم ما لم يكسب بيتهوفن طول عمره .. لأنه بائع ..

إن التجارة مهنة مريبة تقلب قيم الأشياء .. تجعل من العمل قيمة مفلسة .. وتصنع أباطرة مزيفين من أصحاب الدكاكين ..

وشخشخت بالليرات القليلة التى فى جيبى .. والتى لا تصلح لشىء ..

مائة ليرة ..

ماذا تصنع فى إيطاليا ..!

إنها لا تكفى بقشيشًا على مسحة حذاء ..!

وأسرعت أهرول إلى المطار عائدًا إلى بلادى أحمل أخف حقيبة حملها سائح .. حقيبة بها هدية واحدة إلى أصدقائى فى القاهرة .. صفحتين من التأملات على شاطىء التيبر ..

فلسفة الجسم العارى

طبيعي جدًّا أن يتوقف الشرقى الذى جاء من بلاد البراقع والعباءات أمام هذه الوفرة من الأجسام العارية المعروضة فى الفاترينات ..

وكل شيء فى باريس يعرض بلغة الجسم العارى .. إعلانات القمصان .. إعلانات العطور .. الدعايات السياسية .. آخر دواء منوم .. حتى طوابع البريد .. تصدر لك مصلحة البريد طابعاً عليه رسم عريان .

وليست الدوافع سياحية فقط .. فالباريسيون أنفسهم فى هذا الشهر الشديد البرودة وهو ليس شهرًا سياحيًّا يملئون مسارح الستربتيز فى البيجال ويحتلون الصفوف الأولى يتأملون العروض العارية فى اهتمام شديد .. اهتمام ليس منبعه الحرمان الجنسى .. ولا الفضول الشرقى لرؤية الأعضاء التناسلية .. فالاختلاط فى باريس هو القاعدة ، والعلاقات ميسورة ، وإنما منبعه فلسفة باريسية .. اسمها فلسفة الجسم العارى .. فالجسم العارى هنا لغة فنية مثل الأدب والموسيقى لها نقاد وهو أيضًا سلعة لاجتذاب أموال السائح الشرقى ..

والفرنسيون من رواد البيجال يتابعون العروض بكل برود وهم يدخنون فليس ما يعرض بالنسبة لهم موضوعاً

للإثارة ولكنه موضوع للنقد وأسلوب سريع لنشل جيوبنا ..

وما يعرض على المراقص الأخرى بهدف التعبير عن الجنس يعرض بفن يحاولون به إخفاء الإثارة بوضعها فى قالب ثقافى .

إنها فلسفة الجسم العارى .. اعتياد العين على رؤية الجسم العارى نقل التفكير من موضوع الإثارة الغريزية إلى موضوع التأمل الذهنى البحت فى كل ما يمكن أن يرى فى الجسم العارى من علاقات جمالية بحتة ومعَان مجردة وإلى موضوع للتجارة الصرفة وابتزاز المال .

ومع ذلك فليست باريس هى ملاهى الستربتيز والخنافس فبرغم جاذبية هذه الموضوعات للكتابة الصحفية والقراء الشرقيين .. فإن باريس شىء آخر .

فى باريس أكثر من ثلاثمائة مسرح تعرض أحدث ما وصلت إليه مبتكرات الأذهان من فن رفيع بعيد عن الإغراء ، خال من إسفاف التجارة .. وفى باريس عشرات المتاحف وعشرات المكتبات العامة تحوى مخطوطات نادرة يسافر إليها الدارسون من كل مكان .

فى باريس آثارنا الفرعونية معروضة بذوق أجمل مما هى فى متحفنا القديم الذى يشبه – من كثرة التكدس فى أروقته بلا نظام – صندوق زبالة كبيراً .

ونجد فى باريس مخطوطات ابن سينا وجابر بن حيان ونفائس غالية من تراثنا العربى لانجدها فى بلادنا ..

ونجد فى باريس صحفاً جادة تنشر مقالات مطولة مدعمة بالإحصاءات والهوامش والدراسات والتعليقات العميقة والمناقشات الحرة .. صحفاً لها رواج ولها قراء بمئات الآلاف .

وإذا كان الباريسى يسكر طيلة ليلة رأس السنة فهو يعمل بيديه وأسنانه طول العام .. والقبلات المباحة فى المترو هى المكافآت التى أحلها الأوروبى لنفسه بعد عمل دائب مرهق ومخلص فى المصنع طول النهار .

وفى باريس أكثر من ٦ ملايين ساكن ولا زحام ولا تعلق بعربات المترو .

وفى باريس أتوبيسات قديمة « كهنة » ولكنها مازالت تسير بكفاءة نتيجة الإشراف الدائب والصيانة المستمرة .

باريس ليست مدينة دعارة كما يحلو للفرد الشرقى أن يسميها .

باريس كالمرآة سوف تعكس لك ما فى نفسك .. فإذا لم تر فيها سوى الدعارة فلأنك داعر ليس فى رأسك سوى الدعارة . وليس الذنب ذنب باريس وإنما الذنب ذنبك .

وأنا رأيت فى باريس بيئة خصبة غنية تنشط الذهن على العمل .

ولم أر فى الإفراط الواضح فى عرض الجسم العارى إثارة بقدر ما رأيت فيها تجارة واحتيال بهدف النشل السريع الذكى لأموال السائح العربى ..

ولم أر فى قبلات المترو أكثر من أنها عادة محلية لمسائل رخصت لكثرة تداولها .

وباريس ليست غالية ذلك الغلاء المخيف الذى نسمع عنه .. فيمكنك أن تؤجر غرفة بمدفأة فى دور خامس أو سادس بخمسة عشر جنيها فى الشهر وتدبر لنفسك طعامًا طول اليوم بنصف جنيه ، وما تبقى فى يدك من مصروف تنفقه فى المواصلات وفى سهرة أسبوعية بأحد المسارح الرخيصة التى تشرف عليها الدولة .

ومتحف اللوفر مفتوح لك مجانًا يوم الأحد ، ومكتبات الجامعة مفتوحة لك مجانا طوال أيام الأسبوع .

وجميع الصحف تقرؤها مجانًا فى السفارة ، وتستطيع أن تحلق شعرك بنفسك بمشط خاص يباع بأربعة فرنكات ، وتغسل ثيابك فى غسالة عامة كل أسبوع بفرنك ونصف الفرنك ، أى حوالى عشرة قروش .

وإذا كنت تتمتع بصحة جيدة وتستطيع أن تخبط مشاوير طويلة يمكنك أن توفر فرنكات المترو ، وتعتمد على قدميك فى ذرع باريس طولاً وعرضًا ، ويمكنك أن توفر وجبة من طعامك وتعتمد على وجبتين ، وإذا أفلست تكتفى باللبن

والتفاح ، وهى أرخص مواد غذائية « كيلو التفاح بفرنك أى عشرة قروش » والخبز أرخص من الاثنين .

وأغلى ما فى باريس الطبيب ، والكوافير ، والمطعم الذى يخدمك فيه جرسون ، والمحلات التى تبيع الأشياء النسائية ، والتاكسى ، والأماكن الأرستقراطية .

وأنت أخيب السياح جميعًا إذا نزلت باريس بعقلية الشرقى لتصطاد امرأة .. فأنت لن تعرف باريس أبدًا .. وأولى بك أن توفر نقودك وتظل فى بلدك ففيها الكفاية من النساء .

ولا تخدعك الأفيشات العارية والأفلام العارية ومسارح بيجال العارية .. فهى عند الفرنسيين فلسفة وتجارة وليست إثارة .. لغة عادية يومية فقدت معناها الجنسى .. وإن كانت مازالت تحتفظ بالشكل الجنسى :

نصيحة واحدة مهمة أن تتعلم اللغة الفرنسية فهى شىء هام وضرورى فى باريس .

أقوال غير مأثورة :

- فى القاهرة تجد بين كل مقهى ومقهى .. مقهى .

وفى بيروت تجد بين كل كباريه وكباريه .. كباريه .

وفى سويسرا تجد بين كل بنك وبنك .. بنك .

وفى باريس تجد بين كل أفيش عارى وأفيش عارى .. أفيش عارى .

وفى طنطا تجد بين كل جامع وجامع .. جامع .

* من أدلة الرخاء فى بلدٍ أن تجد زحامًا شديدًا فى المكتبات وطوابير على أبواب المسارح ، فهذه أشياء لا يفكر فيها الناس إلا بعد أن يشبعوا .

* إذا دخلت باريس وكان أول ما خطر لك .. كيف أقضى ليلة حمراء هذا المساء .. فأنت لم تسافر إلى باريس .. أنت انتقلت من محطة إلى محطة داخل نفسك .. مازلت تحمل إهابك الشرقى وجلدك وعقليتك المراهقة معك وما سافرت إلا لشيطانك .

* ما أجمل رؤية القاهرة من بعيد .. من ميدان الكونكورد .. وشارع الشانزليزيه وشارع دونج سترايت .

* إذا دخلت متحف الشمع فى باريس فسوف تُفاجأ برؤية تمثال بالحجم الطبيعى لموشى دايان إلى جانب تماثيل نابليون وفولتير وروسو .. وفى الصحف وفى التلفزيون وفى الإذاعة سوف تسمع نبرة مختلفة كثيرًا عن نبرة ديجول الودية . والفرنسيون مازالوا يعطون آذانهم للصهيونية أكثر مما يعطونها لديجول .. وعلينا أن نضاعف العمل والنشاط لنكسب هذه الآذان إلى صفنا ، ولا نعتقد أننا كسبنا فرنسا لأن ديجول معنا .

* أرخص شىء فى باريس هو الرسم .. تستطيع أن

تشترى لوحة رائعة لفنان ناشىء يرسم فى المونمارتر بعشرة جنيهات .

الويل لمن يبدأ حياته رساما فى باريس ، إنه سوف يظل طول حياته يصعد من سلم الخدم .

* حذار أن تعمل نجارا فى فرنسا .. فغرفة الصالون موبيليا فاخرة تباع فى باريس بثمانين ومائة جنيه .. وغرفة النوم بمائة جنيه وبالتقسيط .. هذه الأسعار تاريخها عام ١٩٥٧ .

روايات تتحدث عنها باريس

ظاهرة هامة فى مسارح باريس إنها تعرض هذا الموسم روايات مترجمة .. لا توجد مسرحية واحدة محلية مؤلفة .. ظاهرة ثانية أن كل هذه المسرحيات تتناول مشكلة الله والإنسان والوجود لتنتهى إلى نتيجة واحدة .. أن لا أحد يرعانا فى السماء .. وأن الله فى إجازة بالنسبة لكتّاب المسرح وروّاده ، وبالنسبة لسماء فرنسا على الأقل .

فى مسرحية « مقبرة العربات » للمؤلف الأسبانى « ارابال » ترى الديكور الذى لا يتغير طول العرض هو خرابة قذرة تتراكم فيها العربات القديمة ، مجرد هياكل عربات يعلوها الصدأ ملقاة فوق بعضها .. ثم نفهم أن ما نراه هو لوكاندة ، وأن صاحب اللوكاندة يؤجر غرفاتها بأجر زهيد لمن يريد أن يقضى ليلة مع صاحبته ، ونرى أن صاحب اللوكاندة يستغل هذه الغرف ويستغل زوجته أيضًا .. فعلى زوجته مادلين أن تضاجع نزلاء اللوكاندة عند اللزوم .. وإذا رفضت فهو يضربها ثم يدفع بها إلى الغرف لتعود إليه بأجر مضاعف ، ويفهم أن جميع العلاقات الجنسية فى هذه الخرابة الكبيرة تمارس كوسيلة لقتل الوقت أو للتجارة أو اللهو أو كلون من الغرور واستعراض القوة أو إذلال الرجل للمرأة أو المرأة للرجل .. لا أحد يمارس

الجنس للحب .. ولا يوجد الحب على الإطلاق .. كل جنس ينجذب إلى الجنس الآخر بدافع اللذة المؤقتة أو المنفعة أو استعراض العضلات أو اللهو . حتى يظهر المسيح ..

ومسيح القرن العشرين الذى يظهر عام ١٩٦٨ هو مسيح عصرى جدًّا .. فهو يمارس الجنس .. ونراه فى أحضان مادلين « مريم المجدلية » ولكننا نفهم أنه يفعل هذا لأنه يحبها .. وأن لا شىء يحركه نحو الجنس سوى الحب ، وأنه الرجل الوحيد الذى يمارس الجنس للحب فى هذه الخرابة الكبيرة المليئة بالقاذورات .. ولأنه الرجل الوحيد الذى يحب .. نرى جميع الرجال الآخرين يتآمرون عليه لأنه سوف يفسد عليهم حياتهم وملذاتهم السهلة ثم يبلغون البوليس عنه ليتخلصوا منه ..

ويدهم رجال البوليس الخرابة فتخرج لهم المجدلية عارية تمامًا حتى تشغل أنظارهم عنه .. ولكنهم يقبضون عليه ويصلبونه ..

وفى مناظر سريعة ساخرة بعد هذا نرى نشأة الكنيسة ثم تحللها وانهيارها ونرى تحول النصوص الدينية فى يد الكهنة إلى محفوظات واجراءات روتينية بيروقراطية ..

نسينا أن نقول إن جميع أبطال المسرحية عراة ملط ، إلا من ورقة توت من أول المسرحية إلى آخرها .

وتنتهى « مقبرة العربات » لنرى مسرحية ثانية قصيرة لنفس المؤلف « ارابال » وعلى نفس الديكور وفى نفس الخرابة نرى رجلا وامرأة أشبه بزيا وسكينة ، وقد تعودا أن يقتلا فى كل ليلة ضحية .. ولكنهما هذه الليلة وبعد ارتكاب جريمتهما يفكران فى الإقلاع عن هذه العادة السيئة ، ويحاولان أن يكونا مواطنين طيبين .

وتسأل المرأة .. ماذا نفعل لنكون مواطنين طيبين .

ويبدأ الرجل يقرأ من الإنجيل آيات عن الفضيلة والسلوك الطيب ..

وبعد تلاوة طويلة .. تقول المرأة : يا لها من حياة مملة .. إن معنى هذا أننا لن نجد ما نفعله ..

وتبدو البلادة على وجه الرجل .. إنه لن يجد ما يفعله .. إن هذا يبدو واضحًا ..

وينتهى الفصل الواحد القصير وقد فهمنا أن الاثنين سيعودان إلى جريمتهما كل ليلة . وإن تلك الخرابة الكبيرة – الدنيا فى نظر المؤلف – ليس فيها ما يثير بالنسبة لسكانها سوى لذة الجنس ولذة القتل ، وما يبقى بعد ذلك فهو أمر ممل يدعو إلى التثاؤب ولا يستحق مجرد التفكير فيه ..

وإذا تركنا مسرح الفنون حيث التقينا « بأرابال » وذهبنا إلى المسرح القومى فإننا نرى « برخت » فى آخر

عمل له « الأم » يحاول أن يلحق بركاب الساخطين ..

وبالرغم من أن المسرحية مأخوذة من رواية جوركى، « الأم » وبالرغم من أن الشيوعيين يتجنبون الخوض فى مسائل الدين فإن برخت لا يريد أن تفوته هذه الحمى دون أن يساهم فيها . ونراه فى أهم منظر فى المسرحية حينما يبلغ الأم نبأ مقتل ابنها رميًا بالرصاص وهو يوزع المنشورات الشيوعية ويثير الاضرابات فى فنلندا .. تسقط الأم مغشيًّا عليها . وتدخل جاراتها لإسعافها ..

وفى محاولة من الجارات لتعزية الأم .. يقدمن لها الإنجيل فترده بأدب فى البداية قائلة : إنه كتاب جميل ولكنها لن تجد فيه تعزية .. فتقول الجارة : إن لها أبًا فى السماء يرعانا جميعًا .. فترد الأم قائلة : إنها تعرف أن فى السماء غازات منها الأكسجين والنتروجين ولكن ليس فيها غاز اسمه الأب السماوى ..

– ولكن الله يكتب علينا الموت ، وكل ما نعانيه فى حياتنا الدنيا قدر مكتوب ، ألا تؤمنين بذلك أيتها الأم الطيبة ؟!

– إن ما تعلمته أن الإنسان هو الذى يخط قدره بيده ..

– ألا تصدقين ما فى الإنجيل ؟!

– لو صدقت أنت ما فى الإنجيل وعملت بما فيه لما طردت ناتاليا المسكينة ، لأنها لم تدفع لك إيجار غرفتك ..

- لقد تأخرت فى دفع الإيجار ثلاثة شهور .. والإنجيل يوصينا بأن تؤدى الحقوق إلى أصحابها ..

- ويوصينا أيضًا بالرفق بالضعفاء والمحبة والعمل من أجل الآخرين ..

وفى محاولة كل من الاثنتين إثبات وجهة نظرها يتمزق الإنجيل بينهما .

وبالرغم من امتلاء المسرح لآخره وتصفيق اليساريين المتحمسين .. فإن تعليق النقاد على المسرحية أنها أفشل وأتفه ما كتب برخت ، وأن مناقشة برخت لمشكلة وجود الله كانت سطحية ودون المستوى ..

والملحوظ أنه فى الوقت الذى تكاد تكون فيه مسرحيات برخت مسرحيات مقررة على الدول الاشتراكية فإنه الآن فى فرنسا يلفظ أنفاسه ككاتب مسرحى دعائى ساذج من الدرجة الثانية .

وإذا تركنا المسرح إلى السينما فإننا نرى الموجة الجديدة تكتسح باريس ..

وفى فيلم « نهاية الأسبوع » لجودار وهو رائد الموجة الجديدة .. نرى محاولة شديدة التطرف ..

يبدأ الفيلم بحوار بين الزوج وزوجته .. الزوجة تعتذر عن الخروج مع زوجها لأنها مريضة بنزلة شعبية .. ونفهم بعد هذا أن الزوجة كذبت لأنها تريد أن تلتقى بعشيقها ..

ونرى أن الزوج هو الآخر قد استفاد من الفرصة فذهب إلى عشيقته ..

وبعد قطع سريع تذهب بنا الكاميرا إلى بيت العشيق .. ونرى الزوجة عارية تحكى لعشيقها اعترافًا مفصلا عما دار فى الليلة الماضية .. حينما كانت هى وزوجها وروبير وزوجته معًا .. وكيف تبادل الأزواج الزوجات .. ونام كل منهما مع زوجة الآخر .. ثم تفاصيل دقيقة عن شذوذ روبير وعن أساليبه المنحرفة فى الفراش .. حوار طويل مفصل يستمر خمس دقائق ينتهى بأن يقول العشيق وهو يأخذ الزوجة بين ذراعيه لنر بالضبط ماذا فعل روبير .

فإذا كنا فى اليوم التالى فنحن مع الزوجين فى فسحة نهاية الأسبوع وقد استقلا عربتهما الأنيقة فى طريقهما إلى الأم فى الريف .

والطريق الزراعى مزدحم وفيه مئات العربات .. وهناك حادثة على الطريق .. والمرور معطل .. وكل صاحب عربة يلعن ويسخط : ألم يكن يريد أن يموت إلا اليوم .. لماذا لم يمت فى يوم آخر ويريحنا .. لا أحد يفكر إلا فى نفسه وفى الوصول إلى هدفه قبل الآخرين ..

وينفتح الطريق بعد ساعات لنرى حادثة تصادم بشعة ذهب ضحيتها أطفال وشبان وبنات قتلى على جانبى الطريق .. ولكن لا أحد يتوقف لينظر وإنما تمرق العربات

فى سرعة خاطفة ويذهب كل واحد إلى حاله ..

ولكن المأساة لا تنتهى وإنما تبدأ .. فعلى جانبى الطريق عربات محطمة محترقة وحوادث وقتلى فى كل شبر من الطريق .. حادثة بعد حادثة – ونفهم من ذلك أن المؤلف يرمز إلى النيران المشتعلة على الجانبين فى فيتنام والكونغو ونيجيريا والشرق الأوسط والقنابل التى تتساقط ، والضحايا الذين يسقطون فى كل مكان بينما الناس فى أوروبا يتبادلون القبلات على الأرصفة ويخرجون فى فسحة نهاية الأسبوع ومعهم سندويتشات الدجاج وزجاجات الويسكى كل منهم يضحك ملء فمه كأن لا شىء يحدث حوله !..

ثم يفاجئنا المؤلف بقاطع طريق يقطع الطريق على عربة الزوجين ثم يقفز إلى داخل العربة ويقول فى هدوء للزوج : « إنه الله » . وإنه يريد الذهاب إلى لندن .. وينظر الزوج فى سخرية إلى هذا الرجل الذى يدعى بكل تبجح أنه الله .. وفى حركة مثيرة يبسط الرجل يده ويمدها إلى السماء ثم يفتحها فإذا بداخلها أرنب سمين عظيم .. ويضحك الزوج .. ويقول الرجل إنه مستعد لأن يجيب لهما أى طلب ، حتى لو أرادا الجنة ذاتها إذا أوصلاه إلى لندن .. ألكما حاجة فى طلب أى طلب ؟..

ويفكر الزوجان ويقدحان زناد فكرهما ، ثم ينفجر

الزوج قائلا : عربة مرسيدس عام ١٩٦٨ وتنفجر الزوجة متوسلة : فستان سواريه من محلات كونياس ، ويصرخ الله فى ازدراء : ولكنك يا رجل تملك الآن عربة مرسيدس عام ١٩٦٥ .. وأنت يا امرأة عندك خمسون فستانا سواريه .. وهذه فرصة ذهبية لم تتح لبشر .. تلتقيان فيها بالله وتطلبان ما تشاءان فلا تخطر لكما إلا هذه المطالب البرجوازية التافهة . بصراحة يا بشر .. أنا أحتقركم جدًّا ويبصق الله فى احتقار ويقفز نازلا من العربة .. ويصرخ الزوجان : أثبت لنا أنك الله .. إننا نشك فى أمرك .. أحدِث لنا معجزة .. فيجيب الله وهو يختفى : أنتما أحقر من أن أثبت لكما وجودى ..

وفى طريق الحوادث والحرائق تنتهى عربة الزوجين إلى حادثة فتحترق هى الأخرى وينجو الزوجان ليهيما على وجهيهما جائعين يطلبان اللقمة فلا يجدانها .. ويحاولان توقيف أى عربة فلا يقف لهما أحد .. فكل واحد لا يفكر إلا فى نفسه ..

وفى النهاية تقف لهما عربة زبالة يقودها زنجى .. ونرى الزنجى يقضم قضمات كبيرة من سندويتش فى يده .. فيطلب منه الاثنان لقمة فيعطيهما « فتفوتة » ..

– ولكن هذه « فتفوتة » !.

– إنها بالضبط يا سيدى نفس النسبة التى تعطيها لى

أمريكا من خيرات الكونغو ..

وعلى عربة الزبالة يصلان إلى بيت الأم فى الريف ..

بيت أنيق فى وسط ضيعة ..

والأم غنية ولها أطيان ومزرعة لتربية الدواجن ولا تريد أن تعطيهما شبرًا من أملاكها ..

وحسب الوصية لابد أن تموت الأم ليرث الأبناء ..

والأم عجوز ولا تريد أن تموت ..

ويقتل الاثنان الأم ويرثان الضيعة ..

ونسمع على الحشيش فى الحديقة المجاورة شابًّا يقرأ من كتاب شعر فى يده :

– متى يمنحنا الله ساعة صفاء ؟

ويجيب علينا الفيلم كله .. وهذا ما حدث حينما منحكم الله ساعة صفاء .. وخرجت مدينتكم الظالمة لتمرح ..

وينتهى الفيلم بهجوم الهنود الحمر وحشود يأجوج ومأجوج وعصابات من البرابرة البيض والصفر على هذه المدينة الظالمة التى تمرح ..

ونرى مناظر ختامية لعالم خلا من الله والقانون والمحبة والنظام .. مناظر تصل إلى ذروة فى البشاعة .. والفوضى والقتل والإباحية .. والنهاية التى يتوقعها المؤلف لحضارة القرن العشرين ..

وهذا هو الفيلم الذى يعرض فى خمس سينمات فى وقت

واحد فى باريس ويدور حوله الجدل العنيف ..

وفيه كما فى مسرح « أرابال » النذير المشئوم .. ونفس النبرة المقبضة .. بأن أوروبا تعيش فى عالم بلا إله .. وبلا أمل .. وأنها على حافة الهاوية ..

لقطات من لندن

فى هايدبارك سمعت هذا الحوار الطريف :

الخطيب شاب أسود إفريقى والمستمعون عدة مئات من الإنجليز والبيض من مختلف الجنسيات ..

والخطيب ينقد بشدة الأوضاع داخل بريطانيا .. رأس المال المتحكم ، وتجار السلاح ، ونهب الشعوب ، وامتصاص دم المستعمرات فى الوقت الذى يرفض فيه أى صاحب عمل تشغيل السود ويفضل عاملا أبيض سكرتيرًا مدمن مخدرات مصابًا بالشذوذ الجنسى لمجرد أنه أبيض ..

ويرد عليه خنفس من الواقفين شعره ناعم ومسترسل حتى كتفيه :

– إذا كانت لا تعجبك بلادنا فلماذا لا تعطينا عرض أكتافك وتحل عنا وتعود إلى بلاد القرود التى تعيش فيها .. أراهن أن لك ذيلا تخفيه تحت هذه العباءة الخضراء الفضفاضة التى تلبسها « ضحك » ..

– أنا لى ذيل فعلا ولكن ليس من الخلف .

وبالمناسبة يا سيدى أو سيدتى .. فى الواقع أنا فى حيرة .. هل أنت رجل أو امرأة .

« ضحك وتصفيق » .

ويرد الخنفس فى هدوء :

– أنا أناقشك على مستوى سياسى أرجو ألا تخرج عن الموضوع .. لقد طرحت عليك سؤالا محددًا فلم تجبنى عليه .. إذا كنا لا نعجبك فلماذا لا تغور فى داهية وتريحنا ..

– أنا مستعد أن أغور فى داهية وأعود إلى بلادى .. إذا غار فى داهية اثنان ونصف مليون إنجليزى متشرد هلفوت يعملون فى قارتى إفريقيا .. دخلوها بدون دعوة وبدون استئذان .. دخلوها قفزًا من النوافذ .

– دخلوها ليعلموك ويمدنوك .

– علمونى الوصايا العشر وقالوا لى : لا تسرق .. لا تسرق السيجارة ورأيتهم يسرقون حقول التبغ كلها وحقول الشاى والقمح والقطن ومناجم الذهب والحديد ويسرقون أولادى ويبيعونهم فى أسواق النخاسة .. لا تقتل جارك ورأيتهم يقتلون بدل الجار مليون جار بالقنابل الذرية .. لا تزن مع امرأة ، ورأيتهم يزنون مع الرجل .

– لا تنس أننا دخلنا إفريقيا لنجدكم عراة برابرة بدائيين آكلى لحم البشر .

– إنه لأمر مؤسف يا سيدى أننا أقلعنا عن أكل لحم البشر .. فالواقع أنى أرى أنك أكلة شهية جدًّا .. دجاجة لذيذة تغرى بالقضم « ضحك وتهريج » .

ويرد الخنفس فى هدوء :

– ألم يكن من الأولى أن تأخذ أمك العزيزة أقراصًا لمنع الحمل حتى لا تلد خنازير وغوريلات مثلك .

– يبدو أن الكثيرات من الإنجليزيات الجميلات من أهل بلدك لهن وجهة نظر أخرى ، فهن يفضلن صحبة الخنازير والغوريلات أمثالنا .

– رد عليَّ ردًّا سياسيًّا .. قل لى ماذا يحدث لو أن الرجل الأبيض حمل ما بنى لكم من مدارس ومصانع ومستشفيات وعاد إلى بريطانيا . وماذا يحدث لبريطانيا لو حملتم أنتم اختراعاتكم ومبتكراتكم وعدتم بها إلى الغابة .. يا سيدى ، الرجل الأسود صفر .. وهو غير موجود فى بلادنا ووجوده مثل عدمه . أما نحن فإذا هجرنا بلادكم فإنها سوف تتحول إلى خراب لأننا نحن الحضارة .

– الحضارة بدأت من إفريقيا .. من مصر ، إذا كنت قرأت التاريخ .. وهى سوف تعود إلى إفريقيا .. الحضارة تنتقل حيث يحلو لها ، وحيث يوجد من يعمل لها ويسهر من أجلها ويعرق من أجلها ، وليس حيث تسهرون أنتم فى البارات وفى صالونات الحلاقة تحت السشوارات « ضحك من البنات » .

وبين الجمهور عشرات من البنات سن ستاشر يتابعن ويتحمسن ويشتركن فى المناقشات .

ولندن الآن تحولت إلى هايد بارك كبيرة .. فى كل

خطوة تسمع نقاشًا حادًّا فى السياسة .

ولا يدور فى ذهن الناس إلا السياسة .

فى الصحيفة ، فى الكتاب ، فى الإذاعة ، فى التليفزيون ، فى المسرح ، فى السينما ، نفس القلق ونفس الأسئلة والكابوس الجاثم الذى اسمه اليمين واليسار .

والفيلم الذى يروج هو الذى يضيف تحليلا جديًّا إلى الموقف السياسى .

فى فيلم إيطالى للمخرج بارتو لوتشى يعرض الآن فى لندن وباريس نرى الأزمة السياسية مطروحة بطريقة جديدة .

وبطل الفيلم عضو فى الحزب الشيوعى ، من ذلك النوع المتحمس الذى ينتقد كل شىء ولا يرضى عن أى شىء .. وأى تهاون فى نظره خيانة .. وأى انحراف جريمة تاريخية .. وأى تشاؤم إثم لا يغتفر .. وأى تردد بورجوازية .. وأى اعتدال رجعية .

ونراه يحمل شعار « أنت بورجوازى » يلقى به فى وجه كل من يقابله .. وعينه مفتوحة كعين الصقر تلتقط كل ظاهرة بورجوازية من تسريحة الشعر إلى ربطة العنق إلى الحذاء اللميع إلى بدلة السهرة .. لقد تعلم جيدًا الدرس الذى سمعه من سيزار فى الحزب . ما هى البورجوازية .. حب المظاهر الفارغة والفخفخة وجنون الموضات ، والجرى

وراء الألقاب والشهرة ، والخضوع للذوق العام ، ومحاولة الانتساب للطبقة الأرستقراطية وتقليدها .. العجز عن الخروج من قبضة العرف والعادة ، والخوف من مخالفة رأى عام ولو كان خطأ . تقييم كل فرد بما فى جيبه .. الجبن أمام المسئولية وإلقاؤها على الآخرين .. احترام المنصب وليس العمل .. الفردية ، السلبية ، كل هذه سمات البرجوازى .. وعليه أن يكتشفها ويفضحها ويحاربها ، فالبورجوازية هى عدوة الثورة والأخلاق ، البورجوازية هى التى تقعد بالشعب عن بلوغ أهدافه . والأخلاق البورجوازية قد توجد فى العامل والفلاح .

العامل الصغير الذى يفكر فى أن تكون له ورشة صغيرة مثل صاحب الورشة التى يعمل بها بورجوازى ، والفلاح الذى يطمع فى ملكية عشرة أفدنة مثل المالك الذى يعمل عنده بورجوازى .

وبطلنا يعى الدرس جيدًا ، وينطلق من أول الرواية إلى آخرها مثل كلب الصيد .. يهاجم ويتهم ، ويدمغ بالخيانة والانحراف ، ويلقى المحاضرات ، ويناقش ويصنف الشعارات والنداءات المحبوكة المسبوكة ، ويضع كلبشات المنطق فى يد تعيس الحظ الذى يقع تحت يده ويودى بصديقه إلى الانتحار فى لحظة يأس .

ونحن نفاجأ فى آخر الرواية ببطلنا العظيم هذا يخون

حبه الوحيد ويتزوج من امرأة أرستقراطية من أسرة إقطاعية عريقة ، ونراه فى بنوار من أوبرا روما إلى جوار زوجته فى بدلة سهرة أنيقة يرد التحية للوزراء ورجال المال عن يمين وشمال .

وحينما ينهار البطل أمام سيزار يقول فى صوت ممزق .. لقد ظللت طول عمرى أحارب البورجوازية فى الآخرين ونسيت أنى أنا بورجوازى .. وكان يجب أن أحارب نفسى قبل أن أحارب الآخرين .. كنت أظن أنى أنا الثورة .. ولكنى الآن أعلم جيدا أننا جميعا أنا وانتم وكل ما نقول ونكتب نمثل مرحلة ما قبل الثورة .. وليس الثورة .

وحينما يرد عليه سيزار قائلا : اتهم نفسك ولا تتهم الحزب .. نرى من خلال الكاميرا ولقطات المخرج أن الفيلم يحاول أن يقول لنا أكثر من هذا .. فكل ما فى عالمن اليوم من ثورات هى مراحل ما قبل الثورة فى نظر المؤلف والمخرج .. إنها الثورات التى يجب أن تثور على نفسها إذ أرادت أن تحقق حرية حقيقية للإنسان وليس شعارات زائف كاذبة .

والفيلم يقدم هذا المضمون السياسى من خلال قص غرامية غاية فى الرقة .. قصة تنتهى بخيانة الحبيبة التى تمثل كل المبادئ الشريفة التى كان يدعيها البطل وينتحلها والنبرة السياسية خافتة طول الوقت تطل من بين السطو

ويجهر بها الصمت دون أن تنتقل الكاميرا مرة واحدة إلى الحزب الشيوعى وخلاياه ومنشوراته .

وإذا ذهبنا إلى المسرح وجدنا أن معظم موضوعات المسرحيات سياسية .

فى مسرحية « الرقم ١٠ » التى يعرضها مسرح ستراند هذا الأسبوع يقدم لنا المؤلف رونالد ميلر صورة خيالية لأزمة سياسية تحدث سنة ١٩٦٩ ولكننا نفهم من أحداث الرواية أننا نعيش بالفعل هذه الأزمة أو أننا نسير إليها بخطى مسرعة .

والمؤلف يقدم لنا ما يجرى من أحداث فى بلد خيالى اسمه زمبارديا .

ونفهم أن زمبارديا تقع فى جنوب إفريقيا ، وأن زعيم زمبارديا ثائر وطنى استطاع أن يحقق لبلاده مكاسب اجتماعية عظيمة .

وهذا الزعيم اسمه « تيموى » يخطط لضرب الاستعمار البريطانى فى بلاده ضربة قاصمة .

ويُفتح الستار فى الفصل الأول على مجلس الوزراء البريطانى ، مجتمع وجو الجلسة مكهرب متوتر ، ووزير الدفاع يقول إن معلومات المخابرات المؤكدة التى تحت يده تقول إن « تيموى » سوف يؤمم مناجم النحاس فى زمبارديا ، وإن هذه الضربة ستكون ضربة قاصمة لاقتصاد

بريطانيا وهيبتها ، ولابد من اتخاذ إجراءات سريعة وحاسمة لتدارك الكارثة .

ورئيس الوزراء يقول :

– هل تريدنا أن نعلن الحرب على زمبارديا ؟..

– لابد من إسقاط « تيموى » بأى ثمن .

– ومن يدريك أن إسقاط تيموى لن يؤدى إلى ظهور تيموى آخر ؟..

وتحتد المناقشة وتشترك عدة أصوات :

– إننا لن نستطيع أن نوقف المد الوطنى فى هذه البلاد بالعنف .. إن العنف فى مثل هذه المسائل لا يجدى .

– إن المد الوطنى يحمل معه أخطارًا تهدد الوجود البريطانى فى القارة ، ولا يجب أن ننسى أننا ما زلنا نعتمد فى خاماتنا ومواردنا الأولية على إفريقيا ، وما زالت إفريقيا هى سوقنا الرئيسية .

– إننا لا نستطيع أن نرسل بحملة بحرية إلى شواطىء زمبارديا من أجل استرداد مناجم النحاس .. إن ما كان يمكن عمله فى القرون الوسطى لا يمكن عمله الآن .. إن العصر تغير .

– هل نقف مكتوفى الأيدى ومصالحنا مهددة ؟..

– نستطيع أن نقوم بعمل سياسى فى مجلس الأمن .

– بدون تأييد أمريكا لن نستطيع أن نحصل على أغلبية

كافية .. وسوف تتلكأ القرارات بين الأدراج بينما مصالحنا تضرب فى أفريقيا ونطرد خطوة خطوة إلى البحر .

– إن الأزمة الاقتصادية فى بريطانيا لا تحتمل الانفاق على أى خطة عسكرية .. ليس عندنا بديل للمفاوضة .. وهنا يدق وزير الدفاع بيده المائدة صارخًا :

– أتعلمون ماذا ستكون نتيجة الفراغ السياسى الذى نتركه فى إفريقيا . إن الصين سوف تملأ هذا الفراغ . بل هى تتحرك لتملأه بالفعل .. وهذه الخرائط والصور التى التقطتها أقمار التجسس للمنطقة « يبسط عددًا من الخرائط أمامه » تدل على ذلك .. « يشير بيده » قواعد صواريخ صينية .. مطارات فى زمبارديا عليها عشرات الطائرات الصينية .. قاذفات طوربيد صينية على الساحل .. الصين فى إفريقيا .. الصين فى آسيا .. سنوات قليلة أخرى ثم تضع قدميها فى أستراليا ، ولا يبقى لنا إلا أن نموت جوعًا فى الجزر البريطانية ، أو نحارب بعد فوات الأوان ألف مليون صينى وآسيوى وإفريقى مسلحين بالقنابل الهيدروجينية حربًا تكون فيها نهاية جنسنا الأبيض .

وينزل الستار على هذه الأخطار المدلهمة . فإذا كان الفصل الثانى فنحن نرى أن الرئيس تيموى قد أمم مناجم النحاس بالفعل ، ونرى إنجلترا تسحب خبراءها من

المناجم فى محاولة لشل العمل فيها ، ولكن الخبراء الإنجليز يخرجون ليدخل الخبراء الصينيون مكانهم ، وتستمر المناجم فى عملها وكأن لا شىء حدث .. ويوافق رئيس وزراء بريطانيا على عمل مظاهرة بحرية أمام سواحل زمبارديا على سبيل الإرهاب .. الإرهاب فقط .. ولكن وزير الدفاع يقترح عملاً عسكريًّا أكثر حسمًا .. يقترح التضامن مع جارة زمبارديا روديسيا .. التضامن مع الأقلية البيضاء فى روديسيا لشن هجوم مزدوج على زمبارديا وإسقاط تيموى .. ويرفض رئيس الوزراء هذا التهور ويحذر وزير الدفاع من أى اتصال بالأقلية البيضاء فى روديسيا لما هو معروف من عداء تاريخى بين زمبارديا وبين هذه الأقلية البيضاء .

ولكن وزير الدفاع يمضى فى التواطؤ والتآمر مع حكومة هذه الأقلية البيضاء سرًّا ليدبر انقضاضًا مفاجئًا على زمبارديا .

إلى هنا تسير الأحداث شبه متوازية مع أزمة السويس .

ومن الواضح أن المؤلف يتخيل أزمة مشابهة .

ولكن ستار سوف ينزل على نهاية مختلفة تمامًا .

فرئيس الوزراء يكتشف التواطؤ بين وزير حربيته وبين حكومة الأقلية البيضاء فيضطره إلى الاستقالة ، ويدعو فورًا إلى اجتماع قمة يشترك فيه تيموى مع الرئيس

الأمريكي في محاولة لتسوية سلمية ، ونراه يحجز الطائرة ليسافر فورًا لحضور الاجتماع ونسمعه يقول :

– سوف أخالسهم وأدير دفة السفينة إلى البحار الآمنة .

ونفهم أنه سوف يسعى إلى السلام بأي ثمن .

إنها محنة الرجل الأبيض أمام يقظة الشعوب الملونة .. أمام زحف الصين وانتفاض إفريقيا .

والمؤلف لا يرى حلًّا لهذه المحنة سوى قبول الأمر الواقع ، وطلب السلام بأي ثمن ولو كان الثمن هو الهزيمة والتراجع إلى الصفوف الخلفية من التاريخ .. فأي صدام هذه المرة سوف يكون فيه القضاء على الرجل الأبيض وعلى حضارته .. فهناك ألف مليون « سبارتاكوس » .. وليس « سبارتاكوس واحد » .

ترى هل يفكر الساسة كما يفكر المؤلفون ؟

وهل ينتصر العقل !؟

.. إن ساعة الامتحان تقترب .

الله فى لندن

٣٣ ميدان بلجراف - مارلبورن .

يا طالما قرأت عن العجائب والمعجزات التى تجرى فى هذا العنوان .

روايات رواها لنا أبو الخير نجيب وعلى راضى عن أرواح تتجسد فى الظلام وكراسى تطير فى الهواء وأبواق تتكلم دون أن يتحدث فيها أحد .

مبنى أنيق من طابقين .

فى الطابق السفلى مكتبة تحوى كل ما فى العالم من كتب عن الروحية ، وتراجم إنجليزية لكل الكتب السماوية بما فيها القرآن ، وقاعة مكتوب عليها قاعة سير كونان دويل « المؤلف المعروف صاحب كتب شرلوك هولمز ، وكان رئيسًا للجمعية فى أواخر حياته » .

تقدمت من السيدة الواقفة فى مكتب الاستعلامات أسألها عن نشاط الجمعية فقالت : إنهم يقدمون هنا محاضرات يومية عن المشكلات الروحية ، بالإضافة إلى عروض خاصة يقدمها أصحاب المواهب ممن عندهم قوى روحية .. وإن هناك عرضًا خاصًّا الليلة الساعة السابعة مساء .. والتذكرة أربعة شلنات .

مبلغ زهيد جدًّا فى مقابل رؤية كرسى يطير فى الهواء

وروح تتجسد من عالم الظلام .

ولكن السيدة صححت معلوماتى قائلة : إنه لم يعد هناك وسطاء من هذا النوع الذى تفكر فيه ممن يجسدون الأرواح أو يرفعون الموائد فى الهواء .. لا أحد الآن يقوى على رفع نملة .. العالم الآن أصبح ماديًّا جدًّا ، لم يعد يجود علينا بأمثال هؤلاء الوسطاء ..

– ولكن العالم كان ماديًّا أيضًا منذ عشر سنوات حينما كنا نقرأ هذه الروايات ..

– نعم .. فى الواقع أنا لا أدرى لماذا لم يعد يتقدم لنا أمثال هؤلاء الموهوبين الآن ..

وكنت أقول فى نفسى ربما لأن الوسائل العلمية المتطورة الآن أصبحت كفيلة بكشف أى خدعة مما كان يسهل حبكها وترويجها أيام زمان .

– إذن ماذا سنرى من عروض الليلة يا سيدتى ؟..

– عندنا مشايخ مكشوف عنهم الحجاب يقدمون عروضًا فى الجلاء البصرى ، وأعطتنى كتيبًا صغيرًا فيه جداول بعروض هؤلاء المشايخ ..

وكان الكتيب يضم عديدًا من الأسماء .. الشيخة مارى هويفر ، الشيخة نورا بلاكورد ، الشيخة ماجدالين كيلى ، الشيخ جاك ماكاى ، الشيخة فلورنس وربشير ..

وكان شيئًا مثيرًا بالنسبة لى أن أتفرج على ما يفعله

الدراويش الإنجليز .. شيئًا يستحق الأربعة شلنات وأكثر .
وضحكت بيني وبين نفسي ..

سأرى الليلة دراويش إنجليز حقيقيين يفتحون الفنجان ويقرءون البخت ويضربون الرمل فى لندن قلعة الحضارة المادية فى عصر الذرة .. إنها فرجة حقًّا ..

ولقد كانت حقًّا فرجة ..

قالوا لى : إن العرض سيكون فى الطابق العلوى فى قاعة سير أوليفرلودج « المخترع المعروف الذى اخترع صمام الراديو .. وقد كان هو الآخر رئيسًا لهذه الجمعية فى أواخر حياته » ..

أسماء محترمة .. سير كونان دويل مؤلف له شهرته واحترامه ، سير أوليفر لودج مخترع عظيم استطاع تحويل راديو السماعة البسيط إلى الراديو الناطق الذى نضعه الآن فى بيوتنا عن طريق الصمام الإلكترونى الذى اخترعه ، لا شك أن الجمعية تعرف كيف تروج لنفسها .

وصعدت إلى قاعة سير أوليفر لودج فى الطابق الثانى ..
كانت ممتلئة عن آخرها ..

ولكن لفت نظرى أن كل الموجودين عجائز ، وأن ٩٠ فى المائة من هؤلاء العجائز نساء عجائز ..

وكانت هذه النوعية الواضحة بين الرواد تدل على أن

الجمعية فشلت أن تخلق إيمانًا حقيقيًّا أو تجتذب عقلاً شابًّا واحدًا ..

ونساء عجائز فى مثل هذا السن هن فى الغالب ضحايا الهستيريا والخوف من الموت ، ولكل واحدة ابن فقدته فى الحرب وتتمنى أن تسمع صوته وعندها استعداد فطرى لأن تصدق أى همسة تقال لها عن العالم الآخر .

واحتلت حتى وجدت لنفسى مقعدًا خاليًا فى الصف الأول .. كان فى نيتى أن أسأل الشيخة هويلر عن طالعى وأرى هل تستطيع أن تعرف هذه الدرويشة الإنجليزية عنى أى شىء ..

وبدأ العرض يعزف على الأرغن لتهيئة الجو .. ودخلت الشيخة هويلر .. امرأة فى الستين تضع نظارة طبية على عينيها ..

وقرأت الشيخة هويلر عدة ابتهالات وصلوات ، وردد الموجودون من خلفها : آمين ..

ورفعت أصبعى لأسأل الشيخة ، ولكنى فهمت أن هذا أمر غير ممكن ، وأن لاأحد يستطيع أن يسأل الشيخة فى شىء ، ولكن الشيخة هى التى تختار بنفسها من تقرأ له الطالع من الموجودين .. وكان هذا أول شىء مريب فى الموضوع .. فمن يدرينى أن الشيخة تأتى كل مرة ومعها طقمها من المريدين والمطيباتية .. ولكنهم قالوا لى : إنها

مسألة ضمير .. وإن هنا فى إنجلترا النظام والقانون فوق كل شيء ..

أمرى إلى الله ..

وأغمضت الشيخة عينيها وسرحت بعض الوقت ثم فتحت عينيها وأشارت إلى امرأة فى الصف الثالث ..

– أنت .. نعم .. أنتِ يا سيدتى يا من تضعين قبعة حمراء على رأسك .. إنى أرى حول رأسك هالة من النور .. إنك امرأة طيبة جدًّا يا سيدتى .. كريمة سخية تحبين الآخرين ..

ونكست المرأة رأسها فى خجل وتواضع .. بينما أردفت الشيخة :

– إنى أرى الآن إلى جوارى روحًا رفافة لشاب رقيق جميل يلبس حلة عسكرية لعله ابنك يا سيدتى .. فهو يشبهك تمامًا .. وفهمت منه أنه مات فى الحرب الأخيرة ..

– نعم .. إن لى ابنًا مات فعلا فى الحرب الأخيرة ..

وتهلل وجه الشيخة .. فقد غمزت السنارة .. وأردفت تقول :

– اسمه جاك .. جاك .. جاك .. أليس كذلك ؟

– لا يا سيدتى ..

– إذن فاسمه ماك .. ماك ..

– لا سيدتى ..

– إذن فاسمه بلاك .. بلاك ..
– فى الواقع اسمه ماكاى ..
– آه.. وكنت تنادينه على سبيل الدلع ماك؟ ماك..
هكذا رن فى أذنى .. أنت تعرفين أن الأسماء تختلط فى عالم الروح .. إن جاك قريب جدًّا من ماك ومن بلاك ..
ولكن السيدة الإنجليزية جدًّا كانت مصرة على تصحيح كل كلمة فأجابت فى هدوء :
– لم أكن أناديه ماك .. ولكن كنت أناديه ماكى ..
وقالت الشيخة التى وقعت فى شر أعمالها :
– حسنًا .. إن ماكى وجاكى وبلاكى من فئة واحدة أليس كذلك ؟ على أى حال . هو يقول لك إنه سعيد جدًّا .. وإنه سوف يحتفل معكم فى ديسمبر – ويبدو أنكم سوف تحتفلون فى ديسمبر بشىء ما .. خطوبة على ما أعتقد ؟
– لا يا سيدتى ..
– إذن هو عيد ميلاد ؟
– لا يا سيدتى ..
– إذن هو عيد زواج ؟
– لا يا سيدتى ..
– أوه .. إنه الكريسماس .. كيف ننسى هذا يا إلهى .. ها هو يبتسم ويضحك معنا ..

– إنه يسألني الآن عن العمة ليزا ؟
والسيدة الإنجليزية تسأل في حيرة :
– من هي العمة ليزا ؟
– ليزا أو اليزابث .. أقول ليزا أو اليزابث ..
وبدت الحيرة على وجه السيدة .. وكانت الشيخة مازالت تعصر في ذهنها .
– ليزا أو اليزابث أو أليس أو دنيس ..
– نعم .. أليس .. عندنا أليس ..
– العمة أليس ..
– هي خالة وليست عمة .
– الخالة أليس .. الفرق ليس كبيرًا على أي حال بين خالة وعمة .. ويبدو أنه كان يعزها كثيرًا ؟
– إنه لم يرها مرة واحدة فهي في أستراليا ..
– نعم .. ولهذا فهو يفكر فيها دائمًا ويسأل عنها .. من الواضح أنه كان يريد أن يراها .. يا له من ولد رقيق طيب .. إنه كان يحب لعب الكرة كثيرًا وهو صغير .
– لقد كان بطلا في فرقة الجيش ..
– أوه .. ألم أقل لك إنه يحب لعب الكرة ..
إنه ما زال مغرمًا باللعب حتى في العالم الآخر .. إني أراه يلهو بالكرة في رشاقة بين قدميه ..
– لقد كان يلعب كرة السلة وليس كرة القدم ..

– أوه .. هذا أمر طبيعي ولهذا هو يفكر الآن فى لعب كرة القدم على سبيل التغيير .. واستمرت الدرويشة تتخبط فى عرض مداه ساعة بين تخمينات تصيب مرة وتخطىء عشر مرات ..

وفى طريقى إلى باب الخروج استوقفتنى فتاة الاستعلامات لتقول :

– ما رأيك فى ما شاهدت الليلة ؟

– رأيى أن مدام هويلر ليست وسيطة جلاء بصرى لأنها لا تملك أى جلاء بصرى أو غير بصرى ، وعندنا فى مصر ثلاثون مليونًا يستطيعون أن يتكلموا أحسن مما تكلمت مدام هويلر دون أن يدعى أحدهم أن عنده مواهب روحية ..

– هل عندكم وسطاء فى القاهرة ؟

– عندنا فى الحسين دراويش الواحد منهم بألف مدام هويلر ..

– حقًّا .. ولماذا لا يأتون إلى هنا لعرض مواهبهم ؟

– أعتقد فعلا أننا يجب أن نصدر لكم الدراويش .

وكانت مكتبة الجمعية قد بدأت تمتلىء بالرواد ..

وأخذت أدور بين الأرفف باحثًا عن بعض الكتب ..

والظاهر أنى ظللت أبحث مدة طويلة ، لأن المشرف على المكتبة تقدم إلى ليعرض مساعدته .. ولما أمليت عليه

بعض أسماء الكتب التى أبحث عنها هز رأسه فى أسف قائلا : إنها كانت هنا بالفعل ولكنها نفدت ، ثم أعطانى عنوان مكتبة متخصصة .. اسمها مكتبة واتكنز .. فيها كل ما يخطر على البال من كتب ..

ومكتبة واتكنز .. مكتبة عجيبة .. والشارع السد الذى تقع فيه هو شارع عجيب هو الآخر .. فأنت فى جو يشبه جو شارع الأزهر بمكتباته القديمة وكتبه الصفراء التى تبحث فى الأديان وفى الأرواح وفى التنجيم والسحر .. وكتابة الأحجبة .. وإذا كنت مغرمًا « بالشبشبة » تستطيع أن تجد كتابًا بالإنجليزية يبحث فى « الشبشبة » وتاريخ « الشبشبة » وطرق « الشبشبة » .. وإذا كنت من هواة الجن تجد كتبًا عن الجن ومراجع عن « شمهورش » ..

وصاحب المكتبة رجل عجوز خفيف الدم ..

وإنجليزى حقيقى ..

وقفت أسأله عما فى مكتبته من كتب ، وعن رأيه فى هذه الكتب ، وهل حاول أن يقرأها ؟

فأجاب الرجل فى ابتسامة :

– مما يؤسف له يا سيدى أنى متخصص فى بيع الكلام الفارغ .. ورأيى الحقيقى أن كل ما فى هذه المكتبة كلام فارغ يجب أن يلقى فى صندوق القمامة .. مثلا هذا القسم هناك الخاص بكتابة الأحجبة .. لماذا نتعب أنفسنا بكتابة

الأحجبة .. إذا أردنا النفع فعندنا أسلحة أقوى من الأحجبة .. ما هو الأجدى ، حجاب يجلب البركة ، أو شيك على بنك باركليز بألف جنيه استرليني .. وإذا أردنا الضرر .. لماذا لا نطلق الرصاص بدلا من استحضار شمهورش !..

– عندك حق .. فهذا العصر يقدم وسائل حاسمة وسريعة لتلبية جميع الرغبات ، وبساط الريح وسيلة متأخرة جدًّا وبطيئة من سبل المواصلات بالنسبة للصواريخ .. والشعب الإنجليزى يعرف هذا جيدًا على ما يبدو ، فأنا لا أرى زبائن كثيرين فى مكتبتك ..

– ولهذا نبيع الكتب بأسعار مضاعفة لأن زبائنها قلة .. وكلهم من المجانين .

وكانت مصادفة طريفة حينما جلست أشاهد التلفزيون فى المساء .. فرأيت المذيع يقدم حديثًا مع أحد القسس .. قال المذيع فى أدب :

– سيدى الأب سمعنا جميعًا أنك تقدم فى كنيستك المرطبات ، وأنك جعلت منها مرقصًا يرتاده الفتيان والفتيات لقضاء أوقات مرحة من الرقص على أنغام اسطوانات الخنافس .. سيدى الأب نريد أن نفهم بالضبط ما هى رسالة الكنيسة فى نظرك ؟

وأجاب الأب فى وقار :

– الكنيسة ليست ملجأ عجائز .. سيدى لقد تحولت الكنيسة إلى مقبرة بانعزالها عن واقع الحياة .. وإذا استمرت الكنيسة تقدم للشباب ما لا يطلبه وما لا يفكر فيه فسوف تتحول إلى قبو مهجور ولن يدخلها أحد .. لن يتبقى من رواد الكنيسة إلا عجائز تجاوزوا سن الفعل والتأثير .. فهل هذه رسالة الكنيسة ؟ إننا نفهم دور الكنيسة خطأ .. دور الكنيسة الحقيقى أن تقدم للشباب احتياجاته ..

– والكباريه يقدم للشباب احتياجاته أيضًا ولكن أظن من الواجب أن يكون هناك فارق .

أنا أفهم أن تقدم الكنيسة للشباب احتياجاته الروحيه .

– إن كلمة روح كلمة مضللة جدًّا . واسمح لى أن أقول إن هذه الكلمة لم يرد ذكرها فى الإنجيل .. وإننا أوردناها كترجمة خاطئة لكلمة « كيان » بالعبرية .. الإنسان جسم وكيان فى الإنجيل وليس جسمًا وروحًا .. والكيان كلمة أشمل وأصدق .. والعواطف والرغبات هى من صميم ذات الإنسان وكيانه .. ويجب أن تقدم الكنيسة غذاء العاطفة .. إن الحب ليس شرًّا .. وإنما الشر ألّا نكون صادقين فى حبنا .. وهذه وظيفة الكنيسة ، أن تبارك الحب لا أن تدمغه بالخطيئة – أن تجعل من الشاب محبًّا صادقًا ، بهذا وحده يمكن أن يكون للكنيسة دور فى

الحياة ، وأن تكون بيتًا يؤمه الأحياء لا بيتا يؤمه الأموات .

والحق أنها لشهادة من رجل دين تستوقف التأمل .

وأمر طريف غاية الطرافة من قسيس محترف أن يقول إن كلمة روح كلمة مضللة ، ويقول إن الإنسان جسم وكيان وليس جسمًا وروحًا ، منكرًا بذلك الروح بطريقة غاية فى التهذيب أمام عشرة ملايين مستمع .

لا شك أن الحضارة المادية انتصرت فى أوروبا .

ولا شك أن الله فكرة لا وجود لها بالنسبة للعقلية الغربية .

ولا شك أن الروح بالنسبة للرجل الغربى خرافة بالرغم من وجود الجمعية الروحية ٣٣ ميدان بلجراف مارلبورن ، وما كتبه عنها على راضى وأبو الخير نجيب .

والأمر يستدعى أكثر من جمعية روحية .. ليعود الإيمان .

الأمر يستدعى نزول المسيح شخصيًّا ليمشى على الماء أمام مائة مليون أوروبى ليبدأ الأوروبى يفكر بطريقة مختلفة ..

وربما لو فعل لاستبقت ملايين الأيدى لصلبه من جديد .

لا يفكر الواحد منكم إلا فى ساعات مثلها من النوم .

إنجليزى آخر – لا مانع عندنا من أن تتفوقوا علينا بهذه الطريقة .

وتقدم شاب إنجليزى يرسل شعره طويلا على كتفيه ليقول :

– أليس أولى بكم أن تحاولوا إحراز هذه البطولات فى ميادين القتال بدلا من إحرازها فى الفراش .

وأجاب الزنجى فى سرعة خاطر ناظرًا إلى شعر الخنفس الطويل :

– اعذرنى يا سيدى أقصد يا سيدتى .. الحق أننا لم نعد نعرف كيف نميز بين الرجال والنساء فى لندن .

وأجاب الخنفس بسرعة :

إن الرجولة لا تصنع فى دكان الحلاق ولا غرف النوم .. وصاح إنجليزى آخر :

– لا مانع عندنا من أن نعطيكم نساءنا ونأخذ أرضكم .

وهذا الحوار القصير الذكى كطلقات الرصاص يستحق منا وقفة طويلة ..

فقد أصبحت عادة عندنا أن نشير إلى انهيار الغرب ونستشهد بما يجرى من قبلات فى شوارع باريس لنقول : باريس الداعرة . ونصور شعور الأولاد المرسلة الطويلة فى

لندن لنقول : لندن الساقطة ، ونهلل لخفض الاسترليني ونقول : انتهت الرأسمالية ، أكلتها التناقضات .. اليوم انهار الاسترليني ، وغدًا ينهار الدولار ، وبعد غد يفلس الفرنك ، ويليه المارك ، ولا يبقى إلا أن تشيع الجنازة .

ولا مانع من الحماسة ولكن النظرة الموضوعية أيضًا مطلوبة إذا كنا نريد أن نسمى أنفسنا علميين .

هل انهار الغرب حقيقة اقتصاديًّا وأخلاقيًّا .

الجنيه الاسترليني انخفض عشرين فى المائة هذا صحيح ولكن بالرغم من ذلك ما زال يباع بضعف سعره فى السوق السوداء فى أوربا الشرقية كلها .. الجنيه باثنين .. وما زال عملة صعبة تحتال الحكومات للحصول عليها .

وليس السبب أنه استرليني ولكن لأنه يساوى مقابلا من الإنتاج الجيد المطلوب فى جميع الأسواق .. الاسترليني والفرنك والمارك والليرة معناها الرولزرويس والرينو والمارسيدس والفيات .

لن ينهار الغرب بسبب تبادل القبلات وإطالة الشعر وتخفيض الجنيه ، ولكنه سوف ينهار إذا أنتجت الكتلة الشرقية انتاجا أجود .. وإذا أصبحت الصناعات الغربية صناعات من الدرجة الثانية وغير مطلوبة .. والفنون الغربية فنونًا من الدرجة الثانية وغير مطلوبة .

إن العمل والعمل وحده هو الذى يعطى الجنيه قيمته

ويعطى الشعوب أهميتها .. العمل الخلاق وليس العمل الجنسى الذى لا ينتج سوى أفواه تأكل .

ويبقى للشرف معنى واحد .

إنه العمل .. العمل .. العمل ..

ومنذ ١٢ سنة كتبت فى كتابى « الله والإنسان » أننا ما زلنا نفهم الشرف فى بلادنا الشرقية بمفهوم ضيق جدًّا .. فالشرف عندنا هو « صيانة الأعضاء التناسلية » .. وللأسف ما زلنا نفهم الشرف بهذا المعنى .. ونحاول أن نحكم على الشعوب بنفس المستوى .. باريس داعرة لأنها تتبادل القبلات فى الشوارع ، إنجلترا انهارت لأن الرجال أطالوا شعورهم . لندن . هى الشذوذ الجنسى .

وننسى أن فى القاهرة أيضًا شذوذًا جنسيًّا ..

ولا شك أن العفة شىء ضرورى لسلامة المجتمع ..

ولا شك أن شيوع الفحش هو بداية الطامة ..

لكن أيضًا يجب أن نفهم أن معنى الشرف لا ينحصر فى المعنى الجنسى .. وإنما هو يشمل أيضًا .. شرف الكلمة .. وشرف العمل .. وشرف المسئولية .. وأنه يشمل نظافة الجسد ونظافة اليد ونظافة القلب .

والتفكير بطريقة جنسية سوف يجعلنا مثل هذا الزنجى الذى يتفاخر بقوته الجنسية .

وسوف نتصور معه أن إنجلترا انتهت .. وأن كل

ما علينا هو أن نطيل العملية الجنسية إلى ثلاث ساعات بالحشيش إن أمكن ، فهذه هى الرجولة والكرامة والشرف وأننا بهذا سوف نهزم العالم فهذه هى الرجولة الحقة .. وأن الغرب سوف يموت من تلقاء نفسه بانتهاء الاستعمار ، فمن أين سوف يجد الغرب المسكين طعامه ونحن الذين نطعمه بالقمح ونكسوه بالقطن .

ولكن فرنسا خرجت من الجزائر ولم تمت من الجوع ..

وإنجلترا تخرج اليوم من الخليج وترفض عروض المشايخ بالإنفاق على جيوشها لتبقى فى حراستهم وتقول لسنا رقيقاً فى خدمة مشايخ البترول .

هل تموت إنجلترا بدون استعمار ؟!..

أعتقد أنها سوف تموت إذا فكر الإنجليز فى الدخول فى حروب جنسية تناسلية ، وإذا فرغت أذهانهم فلم تعد تحتوى إلا على مطالب الفراش ..

أما إذا شمر الإنجليزى ساعديه وراح يعمل ويخترع ويبتكر فإنه لا يموت ، وإنما نموت نحن بدون استعمار .. ألا نشترى القمح بعملة صعبة وعندنا مساحات زراعية شاسعة وملايين الفلاحين .. ألا تستجدى الهند القمح وهى أخصب البلاد أرضًا .. ألا تحصدها المجاعات وتأتيها النجدات من الغرب المنهار المفلس .. ألا نتكلم ، ونتكلم ، ونتكلم .. ثم لا نعمل .

متى نفهم أن الرجولة هى الجلد على العمل وحمل المسئولية والصمود للعقبات الجسام والبطولة فى الميدان وفداء الأوطان ..

وأن المجد الحقيقى ليس مكانه مخادع الغوانى ، وإنما المعامل والمصانع والحقول وميادين القتال .

وأن أرخص الانتصارات كلفة وأقلها جهدًا هى انتصارات الرجل فى الفراش .. فماذا يحدث فى الفراش ؟ إن الطبيعة هى التى تعمل هنا وليس الرجل ..

ومن السهل أن تنتصر الغريزة ، وتسود الشهوة .. ولكن أصعب الصعب أن يسود العقل .

والإنسان لا يولد إلا لحظة يسود عقله تصرفاته .. من تلك اللحظة فقط يبدأ تاريخه وعمره الحقيقى .

وهزيمة الرأسمالية التى نحلم بها لن تكون إلا فى ميدان العمل وحده .

والرأسمالية طريق مسدود هذا صحيح ، لكن الكذب على النفس طريق مسدود أيضًا .. ولندن ذروة حضارة وليست ذروة دعارة .

والاشتراكية سوف تنتصر بأن يعمل الاشتراكيون وليس بأن يحملوا لافتات إعلامية وشعارات جوفاء واتهامات باطلة .

ونحن نفتخر فى الشرق بأننا عاطفيون ، مع أن

الاستسلام للعاطفة تأخر وليس علامة تقدم ، وإنما علامة التقدم أن تخضع عواطفنا لعقولنا ، وتخضع عقولنا لإرادتنا ، وتخضع إرادتنا لمثلنا العليا .

وبرود الإنجليزى يدل على ارتقائه .

وفوران الرجل الشرقى يدل على طفولته .

والمجد أعمال وليس دواوين حماسة .

وفى عبارة قصيرة مختصرة ذكية قالها الإنجليزى تلخيص القضية كلها :

– لا مانع عندنا أن نعطيكم نساءنا ونأخذ أرضكم ..

لأنه يعلم أنه إذا أخذ أرضنا وخيراتنا سوف يستعيد نساءه مع الوقت ويأخذ نساءنا أيضًا .

ولا شك أن الخطيب الزنجى لم يكن موفقًا حينما بدأ يتفاخر بقوته الجنسية .

وأغلب الظن أن هذه القوة كانت تنقصه ، فالرجل السوى لا يتحدث عادة فى مثل هذه الأشياء .. والمؤكد أنه نسى أن هذه الناحية هى مظهر ضعف الرجل وليست مظهر قوته .. وشجعه تصفيق البنات الإنجليزيات فتمادى ووقع فى الفخ وأطبق عليه الجمهور الذكى وأهلكه .

وكانت نهاية عادلة أن يهلك هذا النوع من التفكير .

ولكنى مازلت أسأل نفسى :

ترى هل هلك هذا النوع من التفكير عندنا نحن أيضًا ؟!..

نصف ما ينشر عندنا فى الصحف وما يكتب من تعليقات يدل على أننا ما زلنا نفكر بهذه الطريقة الخاطئة .

فما زلنا نتكلم عن انهيار الغرب ونهنئ بعضنا بأن إنجلترا انتهت ، والمجتمع الأوروبى تعفن ، وأكثر من هذا نسوق الأدلة والبراهين ، فظهور الأدب الأسود ومسرح اللامعقول والسيريالزم هى دلائل النهاية ، وننسى أنها دلائل خصوبة وقدرة على الابتكار والتلوين ، دلائل طقس فنى واجتماعى حر يسمح لألف زهرة بأن تتفتح ، ويسمح بالاتهام ولو كان نصبًا للمشانق .

ولأن الفنانين فى إنجلترا يقولون : تسقط إنجلترا .. خيل إلينا أن إنجلترا سقطت .

ولكن إنجلترا لم تسقط .

وإنجلترا هى البلد الوحيد فى العالم الذى لم يحدث فيه انقلاب واحد طوال تاريخه سوى انقلاب كروميل .. ولا يزال الإنجليز نادمين عليه .

لم تستطع معارك النقد بأن تنال من ثبات عرش بكنجهام .

لأن عرش بكنجهام يستمد ثباته من ثبات شخصية المواطن الإنجليزى العادى ، ومن برود الشخصية

الإنجليزية التى تسودها اعتبارات العقل والعلم والنظرة الموضوعية ولا تقودها العواطف والشهوات فتحب اليوم ما تكرهه غدًا .. ومن ثبات الاقتصاد الإنجليزى أنه يقوم على انصراف أربعين مليونًا من المواطنين فى عمل متواصل دائب وجاد يرفع مستوى المعيشة بالاستعمار أو بدون استعمار إلى درجة من الرخاء مشبعة .

إنه العمل مرة أخرى .. وسيادة العقل على البربرية العاطفية ، هى التى صنعت هنا وطنًا متحضرًا حرًّا مستقرًّا .

ولهذا تصور كارل ماركس أن الشيوعية سوف تبدأ فى إنجلترا ، لأنها بلاد التمركز الصناعى والحرية الفكرية .

ولكن كارل ماركس أخطأ الحساب .

وأغلب الظن أن إنجلترا هى آخر بلد سوف تدخله الشيوعية ، لأنها آخر بلد يحتاج إلى الشيوعية .

وسوف يحتفظ الشعب الإنجليزى بالملكة واللوردات ليضحك عليهم تمامًا ، فهذه متعة ضرورية هنا مثل الرغيف تمامًا .

فمن الحرية يصنع الإنجليز ما هو أهم من كل النظم ويصنعون فنونًا تبقى للتاريخ .

بيروت بلد المتناقضات

لبنان « هونج كونج » الشرق الأوسط التى تفتح صدرها لكل أبناء آدم .. دمها خفيف جدًّا .. فقد أقنعت الجميع بأنها حصالة مأمونة ، يستطيع كل واحد أن يحوش فيها فلوسه بدون أن يجد من يسأله عن ملته أو نحلته أو الطريقة التى حصل بها على الفلوس .. الكل سواء أمام البنك المركزى لا فرق بين درزى أو مجوسى أو نيام نيام من آكلى لحوم البشر .. الأحضان مفتوحة للجميع .. وأهلا وسهلا .. تكرم .. يعطيك العافية ، عيونى .. الله معك .. قبضنى .. ساوى حالى .. الله يخليك ..

والمثقف اللبنانى يحادثك فى أسى عن عدم وجود مبادئ وعن عدم تطلع لبنان إلى خطة واضحة .

وهو حديث لمجرد الترف العقلى .. والاستهلاك الوقتى على قارعة الطريق .. أما ساعة الجد .. فأنت تجد أكثر من واحد يقول لك : صرماية على كل المبادئ .. ما لنا نحن ومال ها المعركة .. نحنا هون بنحب الجميع .

وهى لغة القومسيونجى الذى يبيع للكل .. ويريد أن يروج بضاعته للكل ..

واللبنانى فى آخر الأمر له منطق .. فهو لا يملك سوى منظر جميل ورقعة شاعرية على البحر ..

وليس فى لبنان بئر بترول واحدة .. ولا منجم حديد ..

البئر الوحيدة هى جيوب الزوار .. والوسيلة الوحيدة هى نزحها فى رشاقة لتصبح أنظف من الصينى بعد غسيله .. هذه هى خطة التنمية ..

ولكى تؤتى خطة التنمية أحسن ثمرة .. لابد أن تكون الصلة بالجميع حسنة .. والترحيب على أشده لأى وارد من أى مبدأ ..

ولابد أن تتعدد وجوه الإنفاق أمام هؤلاء الواردين .. فالخير دائمًا على قدوم الواردين .

فى كل شارع كباريه .. وبين كل كباريه وكباريه .. كباريه ..

وفى الليل تتألق أفيشات البارات وعلب الليل كأحسن ما يكون الإعلان عن باريس الشرق .

ولا أدرى لماذا انتعش فن الكباريه بالذات .. ربما لأنه أسهل وأسرع وسيلة لإقامة فاترينات جذابة للإمتاع .. بدون جهد فنى يذكر .. فالكباريه لا يحتاج لأكثر من استئجار فرق متجولة جيدة وإعداد موائد حافلة بالمزات والخمور .. أما السينما فأمرها يحتاج إلى مؤلف قصة وكاتب سيناريو ومخرج وممثل وتنظيم فنى وجهد وعكوف طويل مضنى معرض بعد كل هذا للفشل .. والمسرح يحتاج إلى جهد أكبر .. وهو بعد هذا غير مضمون كمصدر إيراد ..

فزبون الثقافة غير مضمون ، وخصوصًا بين سياح عابرين عبورًا عاجلًا طالبين متعًا سريعة ..

ولهذا أصبحت بلد الكباريه بلا منازع .

كباريهات تحت الأرض .. وفوق الأرض .. وفوق السطح .. وفى أقبية .. وفى خنادق .. وفى كهوف أثرية ..

والفن الإذاعى والفن التلفزيونى ليس أسعد حالا من الفنون الأخرى ..

فالإذاعة والتلفزيون فى بيروت هى قنوات إعلان قبل أن تكون أى شىء آخر .. وهى محدودة المجال محدودة القوة .. والفن فيها ثانوى ..

والمواطن اللبنانى إنسان حبوب لطيف مرح .. محب للحياة محب للرقص .. محب للغناء والمرح والشرب .. وهو يكسب كثيرًا وينفق كثيرًا ..

والطبقة التى تسكن بيروت غالبيتها طبقة متوسطة تشتغل بالتجارة وتعيش فى رخاء نسبى . والطموح الشائع بينها هو طموح مادى وشخصى لا طموح قومى .. والأيديولوجية الرائجة هى الحرية الفردية بلا حدود وبلا ضوابط .. والثراء بسرعة وبأى طريق ..

ولكن لبنان مع هذا لا يمكن تلخيصها فى هذه الكلمات القليلة . ولا يمكن مسحها اجتماعيًا وفكريًا بهذه البساطة .. ففى لبنان متناقضات حادة .. وأعماق ..

وقلب .. ولباب .. غير القشرة الاجتماعية التى تبدو للسائح عند أول نظرة ..

وإذا كانت القشرة الاجتماعية بما فيها من كباريهات ومراقص وعلب ليل تبدو فى ظاهرها مصداقًا لهذه الصورة من التحلل الفردى والمادى والمتاجرة .. إلا أن المعايشة العميقة للمجتمع اللبنانى تكشف عن صورة أخرى مناقضة للأولى تمامًا .. فالأقلية اللبنانية المثقفة تبدو منسلخة تمامًا من هذا الواقع وثائرة عليه فى محاولة لتبنى قيم أرفع .. فى محاولة العثور على نفسها وحمل مسئوليتها .

والمثقف اللبنانى يحاول أن يجد نفسه كفرد فى عالم يعاصر كل مشكلة فى هذا العالم بإحساسه وعقله ويشارك فى حلها .. ويقوم بدوره كفرد مسئول لا كمجرد بائع فى دكان .

والمناقشات فى كل قضية معاصرة .. سياسية وفنية وفكرية وعلمية تحتدم فى الوسط المثقف كجزء من الروتين اليومى ..

والكتاب اللبنانى يتابع بالترجمة كل ما يؤلف فى الخارج فى لحظة صدوره .

والحياة الثقافية تبدو طازجة دائمًا على نقيض الشكل الاجتماعى الظاهر الذى يبدو للعيان بكل ما فيه من تحلل وفردية وحياة استمتاعية فارغة ...

وفى وسط ركام التفاهات تبدو هناك إنجازات رفيعة مثل ما يقدمه الأخوان رحبانى وفيروز فى مجال الموسيقى مثلا .

وفى أكثر من مجال نجد أمثال هذه الزهور البرية التى تفرز رحيقًا نادرًا فى مجال الشعر .. والقصة والرواية ..

وفى لبنان شهداء شرفاء سقطوا وهم يدافعون عن عروبة لبنان .

ولكن المثقف اللبنانى فى نهاية الأمر مكبل .. ومغلول .. وإقامته محددة .. لأنه يعمل داخل شكل اجتماعى غير ملائم بحكم طبيعة تكوينه للتطور .. شكل اجتماعى غير طبيع يدور فى حلقة مفرغة من المتاجرة والمنافسة المادية الحامية .. بما فيها المتاجرة بالمعنويات ذاتها .. والمتاجرة بالمثقف نفسه ..

وقيم المحبة والصداقة والإخوّة تختنق فى سباق المصلحة وتكالب رأس المال الذى يطحن فى طريقه كل شىء ..

والشكل الاجتماعى مرتبط بالوضع السياسى والاقليمى للبنان كبلد صغير محدودة الموارد تتكسب من حيادها .. ومن عدم انحيازها لمبدأ .. أى مبدأ ..

وهكذا تمسك حلقة الضرورات برقبة المثقف ولا يجد منها فكاكا ..

لا حل سوى أن يصرخ .. ويناقش .. ويحاول .. ويفكر .

ولكنه صراخ فى الهواء .. يضيع فى النهاية فى صراخ الجاز .. والبوجى بوجى والتويست فى ليل بيروت الأحمر الذى تنزف فيه ملايين الليرات ..

المثقف اللبنانى يعتقد أن له رسالة .. ومبدأ .. ودور فى الحياة ..

ولكن لبنان كبلد صغير بلا موارد .. يعتمد على اللامبدئية كمورد رئيسى لحياته .. اللامبدئية منجم يدر عليه كل فئات العملات من كل بلاد العالم بكافة اتجاهاتها .

وبفضل هذه اللامبدئية تتدفق عليه رءوس الأموال الهاربة من رياح الاشتراكية فى كل مكان .. والنتيجة رخاء مفتعل مصطنع مؤقت .. رخاء متسلل من الخارج وليس رخاء حقيقيًّا ناميًا من الداخل ..

ولا يمكن أن يقوم اقتصاد حقيقى على مثل هذه العوامل الظرفية ..

إنه يكون اقتصادًا من ورق اللعب لا من ورق البنكنوت .. مجرد مقامرة ناجحة على التناقضات العربية الموجودة وهى متناقضات لن تدوم طويلا .. فمصير الدول العربية إلى وحدة حتمية .. ومصير الرأسمالية العالمية إلى الهزيمة .. فالرأسمالية العالمية سوقها وغذاؤها الاستعمار .. والاستعمار يضرب الآن فى كل مكان ..

والرأسمالية العالمية بدون أسواق وبدون مستعمرات

وبدون حقول بترول ومناجم حديد ونحاس وشعوب متأخرة تنهبها وتسرقها .. مصيرها الموت جوعًا ..

ولن يكون أمامها بعد ذلك إلا أن يأكل بعضها بعضًا ..

والمثقف اللبنانى الذى تفوته هذه الحقيقة لا يمكن أن يكون مواطنًا عالميًّا يعيش أزمة هذا العالم ويدرك أبعادها ..

وإذا كانت لبنان المحدودة الموارد لا يمكن أن تكتفى بذاتها فإنها بانتمائها إلى كيان عربى كبير تجد نسبها وكرامتها وعروبتها ، كما تجد الثمرة مكانها العزيز المنيع على الشجرة الأصل ..

لا يمكن أن تعيش لبنان زوجة للكل ..

لا يمكن أن تعيش لقيطة بلا أب بلا أم .. يكتب كتابها بالفرنسية .. ويكتب شاعرها سعيد عقل أشعاره بالحرف اللاتينى ...

إن طلاقها من عروبتها لن يضمها إلى العالم ولن يجعل مواطنها عالميًّا .. وإنما يكون قيدها فى دفتر العالم صحيحًا .. بأن تكون نسبتها صحيحة من البداية ..

وبدون العائلة الصغيرة لن نعرف العائلة الكبيرة ..

بدون أن نعانى مشاعر الأم ومشاعر الأب ومشاعر الأبناء .. لا يمكن أن نكون أبناء فى العالم الكبير ..

والرجل المتحلل من كل الروابط والمسئوليات ، المطلق من زوجته ، المتبرئ من آبائه وأبنائه ، أصلح للانضمام إلى

بار منه إلى الانضمام إلى عالم ..

ولكن لبنان بكل متناقضاتها لم تجعلنى أكرهها .. وإنما كانت بالنسبة لى شيئاً مثيرًا ..

أثارتنى لبنان برائحة زهور الليمون على جبالها ، وروائح الخمور فى باراتها .. بشبابها القلق العبقرى .. وشبابها العابث اللاهى ..

قال لى ياسر هوارى ، الصحفى والكاتب اللبنانى :

– إنك لن تستطيع أن تغلق على نفسك الغرفة فى الفندق لتكتب شيئًا فى الأيام الأولى من نزولك بيروت .. إن بيروت سوف تشدك من فراشك .. ومن مكتبك .. ومن قلمك .. أنت لا تعرف بيروت ..

ولكنى قلت له باطمئنان : أنا أعرف نفسى .

ولكن ثبت لى فى النهاية أنى لا أعرف نفسى .. ولا أعرف بيروت .. وأن صديقى « ياسر » يعرف الاثنين أكثر منى ، فما لبثت بيروت أن شدتنى من نفسى .. وسرقتنى من عاداتى .. وأيقظتنى أشعة شمسها المبللة بالندى بكرباجها المنعش فى الفجر لأقف كالطفل فى الشباك أجذب أنفاسًا لاهثة من هواء البحر ..

وفى التاسعة كنت أدخل فى ثيابى وأهرول إلى الخارج ..

وأمام كل دكان كنت أقف ساعة أمام الفاترينات ..

والفاترينات فى بيروت تبتز المال ابتزازًا .. وتصيب محدود الدخل بمركب نقص لا شفاء منه ..

وهم هناك يجيدون فن العرض .. وفن الإغراء ..

حتى ورقة اليانصيب تجدها مقطوعة نصفين لإغرائك بشراء نصفها إذا كنت لا تملك ثمنها كله ..

والبائع تجده يحمل سباطة الموز بعناقيدها الشهية ويلوح بها وسط المارة لبيعها إصبعًا .. إصبعًا .. لمن لا يملك ثمن الكيلو أو النصف أو الربع ..

وأنت تجد كل واحد من المارة يجذب إصبعًا ويضع فرنكًا فى اليد الممدودة .. ويمضى يأكل ويشقشق بفمه .. منظر مغر .. هو الآخر بروباجندا .. ودعاية ..

لا مفر ..

لابد أن تدفع ..

وطول طريقك فى بيروت فى أى شارع أو زقاق أو ناصية .. لابد أن تدفع ..

التاكسى بليرتين « أربعون قرشًا » ولكن هناك تاكسى مثله بالضبط بثلاثة قروش .. لا تحمل همًّا .. ما دام معك ثلاثة قروش ادفعها وتوكل ..

ادفع .. ادفع ..

هذا هو الفن البيروتى .. يمسك بيدك ويضعها فى جيبك ويخرجها بأى شىء .. أى مبلغ ..

الأقمشة تجدها مزينة بالتوقيعات والماركات والحروف اللاتينية .. وهى تظل تحتال عليك حتى تشتريها ثم تكتشف حينما تصل إلى القاهرة أنها موجودة فى المحلات العادية بنصف الثمن .. ولكنها بيروت .. تعرف كيف تزغلل العين .. وتضيع العقل ..

وأنت تظل أسير الفاترينات والإعلانات .. حتى تفلس وتصبح على الحميد المجيد .. وحينئذ تجد أنك قد فقدت القدرة على الحركة تمامًا .. فأنت فى لبنان بدون ليرات معناها .. معتقل .. مسجون فى زنزانة فراشك .. لا تستطيع أن تحرك ذراعًا ولا ساقًا .. فكل حركة بفلوس ..

ومعتقل بدون أكل وبدون شرب فالأكل بفلوس ، والشرب بفلوس .. والتنفس بفلوس .. والضحك فى سهرة أصدقاء بفلوس ..

والحرية فى لبنان خرافة ..

الحرية متاحة .. ولكن لا يستطيع أن يحصل عليها إلا من يدفع ثمنها نقدًا وعدًّا .. من الليرات ..

أنت حر فى أن ترشح نفسك فى الانتخابات .. ولكن فى الحقيقة لن تستطيع ترشيح نفسك لأن إدارة المعركة الانتخابية تحتاج إلى نصف مليون ليرة ..

والذين نجحوا فى الانتخابات الأخيرة فيهم ١٢

مليونيرًا والطبقة الغنية ممثلة بينهم بكاملها .

وإذا كنت فقيرًا مثلى فلن تجد فى مجلس النواب من يمثلك ..

وأنت حر فى إبداء رأيك .. هكذا يقولون .. ولكنك تكتشف بعد أيام من إقامتك أنك لابد أن تبيع هذا الرأى لمن يملك القدرة على تمويل صحيفة تنشر فيها رأيك . أقصد رأيه ، فأنت من تلك اللحظة سوف تعبر عنه وعن مصالحه لا عن نفسك .. ففى لبنان أكثر من أربعين صحيفة يومية .. ولا يمكن أن تعيش هذه الصحف على القراء وحدهم .. وكل تعداد لبنان كما هو معروف مليون ونصف ..

وإذا كنت نجمًا لامعًا .. وأخذ التليفزيون معك حديثًا .. فسوف تقول المذيعة بعد ختام الحديث : سيداتى سادتى قدم لكم هذه الندوة الرائعة صابون « أومو » .. فصابون « أومو » فى الواقع هو الذى دفع تكاليف هذه الساعة من الهراء الذى قلته فى ندوتك عن الفن والجمال والفكر والفلسفة الخ .. الخ .. وفى النهاية لابد أن تبدو وكأنك تغسل قفاك أمام المتفرجين بصابون « أومو » ..

وأنت حر ..

ألم أقل فى البداية إنك حر جدًا .. لدرجة تجنن .. ولبنان تجنن ..

كتب هذا المقال فى بداية الستينات .. وقد رأينا جميعاً ماذا جرى للبنان بعد عشر سنوات من كتابة المقال . وكيف انهار البناء .. لأنه لم يكن يقوم على شىء .. كان البريق مجرد ديكور من ورق اللعب .

أيام فى طرابلس

أغلى الخمور ما كانت معتقة ..

كلما زاد عمر النبيذ فى الدنان زاد سحره .. هكذا يقول المدمنون .

والحضارات شأنها شأن الأنبذة كلما ضربت بجذورها فى الزمن زادت عراقة ونبلا .. وكذلك المدن عظمتها بتاريخها ونصيبها من تقلب الأحداث .

كان هذا ما خطر لى وأنا أتمشى على شاطئ طرابلس .. فكل ذرة رمل كانت تقول لى هنا تاريخ .

تحت أقدامى حيث تلمع أصداف البحر .. من أغوار الزمن السحيق .. منذ عشرة آلاف سنة .. تقول لنا خريطة العالم القديم .. كان هذا الشمال الإفريقى مسرحًا للفيلة والغزلان والزراف والثيران والأسود والنمور .. وكان الليبيون الأوائل يعبدون الشمس والقمر ويصنعون الأسلحة من الصوان ويصنعون الأوانى الفخارية من الطين المحروق ويستعملون الوشم .

ويمضى شريط التاريخ بضعة آلاف أخرى من الأعوام .. فأرى رسل خوفو يأتون إلى هذا المكان خُطَّابًا يبحثون له عن عروسة ليبية يتزوجها ليأمن بهذا الزواج غارات الليبيين ويتفرغ لبناء هرمه الذى كان يحتاج

لعشرين سنة من العمل المتواصل ..

ثم بضعة آلاف أخرى ويخرج من هنا رجل اسمه « شيشنق » يغزو دلتا النيل ويحكمها ٢٠٠ سنة وتعرف أسرته بين الفراعنة بالأسرة الثانية والعشرين ..

ثم يأتى الغزاة كأرجال الجراد . ويرتفع صليل السلاح ويتخضب ذلك الشاطئ الهادئ الجميل بالدم .

وتمضى مواكب خلف مواكب .

الإغريق .. الفينيقيون .. العرب .. الأسبان .. الأتراك .. الطليان .. الإنجليز .. وأسماء مدوية .. الإسكندر .. بطليموس .. عمرو بن العاص .

وجيوش بعد جيوش تصبح ترابًا .. وأطماع تذروها الرياح .. ومدن تدفنها الرمال ..

هنا بقايا قوس ماركوس أوريليوس .. وهنا حمامات وأسواق رومانية .. وفى بلدة سيرين القريبة معبد أبولو .. ومن هذا الباب دخل عمرو بن العاص سنة ٢٣ هجرية فى جيش من خمسة آلاف جندى ..

وفى سنة ٥٦٨ هجرية جاء قراقوش المشهور من مصر غاضبًا مغضوبا عليه من الأيوبيين ليدخل طرابلس من هذا الباب غازيًا ومعه عسكر كثير وينهب ويسلب ويقود البغال محملة بالذهب إلى قابس ..

وهنا جلس بدرو نافارو القائد الأسبانى بعد أن فتح

المدينة ليكتب إلى نائب الملك فرديناند قائلا :

أيها السيد هذه المدينة طرابلس أعظم كثيرًا مما كنت أظن .. وبالرغم من أن جميع الذين وصفوها قد أجادوا الوصف فإننى أرى أنهم لم يجتازوا نصف الحقيقة .. وبين جميع المدن التى شاهدت فى الدنيا لم أجد مدينة تضاهيها سواء فى تحصيناتها أو فى نظافتها .. وهى تبدو كمدينة إمبراطورية أكثر منها مدينة لا تخص ملكًا واحدًا .

ومن هنا مر « التيجانى » المؤرخ حينما كتب فى كتابه « رحلة التيجانى » ..

« ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الأبصار ، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء » ..

ويضيف فى مكان آخر ..

ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعًا واستقامة ، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولا وعرضًا من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية ، فالماشى بها مشى الرخ خلالها .. (الرخ هو قطعة الطابية فى الشطرنج) .

وعن الغزو الأسبانى نعثر على خطاب كتبه الملك فرديناند إلى قائده ..

استلمت رسائلك الثلاث الخاصة بتموين الحملة وقد

أمرت بأن يكتب إلى الونزو حتى يطحن بأسرع ما يمكن ألف كيس من القمح ويجهز كمية من البقسماط المجفف تكفى ثمانية آلاف رجل مدة ١٥ يومًا .. كما كتبت إلى خازن أموال ملقا بصرف عشرة آلاف دوكات ووضع كل ما يملك من إمكانيات التموين تحت تصرفكم ..

هكذا كانت تدبر المذبحة لأهل هذا البلد منذ أربعمائة سنة ..

وفى صباح الخميس ٢٥ يوليو سنة ١٥١٠ داهم بدرو نافارو طرابلس فى أسطول من ١٢٠ سفينة على متنها ١٥ ألف جندى أسبانى وثلاثة آلاف من المرتزقة الإيطاليين والأوربيين .

وكان العرب يدافعون من وراء هذه الأسوار ومن خلف هذه القلعة ذاتها وما زالت قائمة بأبراجها .. ومن هنا كانت النبال وقذائف الحجارة والنار الفارسية والمياه الفائرة تتدفق فى محاولة لإيقاف جحافل الغزاة .

وفى ذلك اليوم استشهد خمسة آلاف عربى وأسر عشرة آلاف آخرين بيعوا كرقيق فى أسواق صقلية بسعر ٣ إلى ٥ دوكات للرأس ..

وتذكر الرواية أن يهود إيطاليا افتدوا أبناء جنسهم اليهود الذين أسروا فى المعركة ، أما ما تبقى من العرب فقد هربوا إلى تاجوراء وإلى جبال الغريان .. وسقطت

طرابلس بعد حرب أربع ساعات ..

ويروى لنا التاريخ أن بدرو نافارو الذى أبحر بعد ذلك بجزء من الأسطول ليغزو قرقنة ويحقق أحلام أسبانيا التوسعية عاد بهزيمة منكرة بعد أن فقد ٩٠ سفينة وتسعة آلاف قتيل ..

واضطرت الحامية الأسبانية أن ترحل عن طرابلس تحت وطأة المقاومة الليبية والنجدات المستمرة التى تأتى من الداخل .. ونعرف من التاريخ أن طرابلس بلغت أوج عظمتها فى عهد «أحمد باشا ألقره ماللى» وهو تركى مثل محمد على باشا فى مصر استقل بحكم ليبيا .. وأنشأ دولة قرة مالليه مستقلة عن الباب العالى العثمانى ..

وفى هذا العهد بلغت البحرية الليبية من القوة درجة جعلت كل الدول تدفع لها جزية سنوية لتأمين مرور سفنها فى البحر المتوسط .

وحينما رفضت بحرية السويد سنة ١٧٦٩ دفع الجزية .. أسرت البحرية الليبية سبع سفن سويدية ولم تجد السويد سوى نابليون لتوسطه فى عقد صلح مع ليبيا وإطلاق السفن الأسيرة .. ويومها دفعت السويد ثمانين ألف فرنك غرامة .

ونجد أن أمريكا تسعى بعد ذلك بقنصلها لعقد صلح مشابه وتوسط حسن باشا والى الجزائر فى ذلك الوقت

لتأمين مرور سفنها فى مقابل تعريفة سَنوية .
ثم نجدها فى سنة ١٨٠٣ ترسل السفينة الحربية فيلادلفيا بقيادة بامبريدج لغرب طرابلس انتقامًا من تهديدها المستمر لأساطيلها .. فتكون النتيجة ضرب فيلادلفيا وإغراقها أمام هذه الشواطئ وأسر بامبريدج .
وفى سنة ١٨٠٤ نجد أسطولا أمريكيًّا من ١٤ قطعة يضرب شواطئ طرابلس بدون جدوى ..
وفى سنة ١٨٠٥ تعترف أمريكا بسيادة ليبيا على البحر وتوقع معاهدة تدفع فيها ٦٠ ألف دولار لاسترداد أسيرها بامبريدج .
وهكذا عرف هذا الشاطئ ذرى المجد ومهاوى الذلة وتعاقبت عليه الأحداث .. حتى التتار لم ينج من أهوائهم .. ففي سنة ٤٤٠ بعد الميلاد أغارت جيوش الوندال (وهى قبائل تترية) على طرابلس ونهبت وخربت وأحرقت وأحالت لبدة إلى كومة من الحجارة والتراب ، وفر أهلها أمام الوندال إلى النجوع والقرى البعيدة ..
واستمر حكم الوندال إلى سنة ٤٤٣ إلى أن أقبل بلزاريوس القائد الرومانى فى أسطول عظيم وهزم الوندال وشنق ملكهم ڤاليمار وأعاد ملك روما لروما ..
وكان شر ما عانى هذا الشاطئ فى أيام الاستعمار الإيطالى .

وكانت أولى محاولات إيطاليا الاستعمارية فى أواخر العهد العثمانى الثانى سنة ١٩١١ وبدأت على استحياء ..

أنشأت جالية إيطالية قوية فى ليبيا ..

وفتحت مدارس إيطالية مجانية ..

ومستشفيات ومستوصفات ..

وأرسلت الجواسيس تحت ستار البعثات العلمية ..

وأهم من هذا كله أنشأت بانكو دى روما وكانت مهمته إقراض الملاك الليبيين الفقراء ثم نزع أملاكهم ..

وكانت أنشودة رجل الشارع فى هذه الأيام « آه يا طرابلس الجميلة » .

ثم أسفرت إيطاليا عن نواياها فأعلنت الحرب فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ .. وبدأت المذابح .. والحرب التى قدرت لها إيطاليا أن تنتهى فى ١٥ يومًا امتدت إلى عشرين سنة فلم تستسلم ليبيا إلا سنة ١٩٣١ بعد كفاح دامٍ قضى على نصف سكانها ..

وفى سنة ١٩٣٧ جاء موسولينى إلى هذا الشاطئ فى موكب وهيلمان ، ومثلت الإدارة مهزلة إهدائه سيف الإسلام وحامى حمى الدين .. فى الوقت الذى كان يطعن فيه الإسلام ويلزم خطباء المسجد المساكين بالدعاء على المنابر يوم الجمعة للملك عما نويل بدل الدعاء لخليفة المسلمين ويلقى المتمردين من الطائرات . كان المجاهدون

يشنقون فى الميادين العامة وتسبى النساء وتغتصب الأموال وتفرض اللغة الإيطالية كلغة أولى فى المدارس وينفى الوطنيون بالألوف .. وعلى من يريد أن يضمن حرمة منزله وأملاكه أن يتجنس بالجنسية الإيطالية ..

وعلى كل طفل ليبى أن ينشد فى المدرسة نشيد الصباح :

إننا أبناء روما
جندها نحن القدامى
قد سعينا الألف عاما
ثم عدنا للعهود

وآلاف من المهاجرين الإيطاليين والمستوطنين يجلبهم الشاطئ كل يوم .. ولكل إيطالى أرض مجانية يملكها وفيلا يسكنها وحدائق غنّاء تثمر له الفاكهة والتين والزيتون ..

ثم يروى لنا التاريخ هزيمة الفاشية فى الحرب ، وجثة موسولينى التى بصق عليها مواطنوها ..

أيام ..

لقد شهدتِ أيامًا يا طرابلس ..

من كان يظن أن الصحافة بدأت فى طرابلس منذ ١٤٠ سنة بجريدة مخطوطة باليد كان يصدرها القناصل فى نسخ محدودة .

ثم أصدرت طرابلس بعد هذا « السالنامه » بالتركية

والعربية والمطبعة الحجرية وصدر منها ١١ عددًا .

وفى سنة ١٨٦٦ بدأت جريدة طرابلس الغرب التى ظلت تصدر أكثر من ٤٠ عامًا فى العهد العثمانى ، وكانت أول جريدة تتقاضى اشتراكاتها نقدًا ، فقد كانت أكثر الصحف قبل ذلك تتقاضى اشتراكات عينية .. كذا شوالا من الشعير وكذا مكيالا من القمح مقابل اشتراك سنوى ..

ومنذ سبعين سنة كانت فى طرابلس سبع صحف .. الترقى ، والعصر الجديد ، والكشاف ، والرقيب ، وأبو قشة ، وغيرها وغيرها فى ظروف طباعة بدائية ، وفى أسوأ ظروف الاستعمار الإيطالى .. نقرأ هذا فى كتاب على مصطفى المصراتى « صحافة ليبيا » وعلى المصراتى وهو عقّاد ليبيا لا تستطيع أن تعرف أى شىء عن ليبيا دون أن تمر على كتبه ..

وفى ليبيا زهر جديد طالع كالنوار أمثال أحمد الفقيه ، وبشير الهاشمى ، ويوسف الغويرى ، وعلى صدقى ، يكتبون القصة والمقال والشعر .. وفى ليبيا أبطال بذلوا دماءهم فداء ومحبة أمثال سعدون وغوما وعمر المختار وسوف تكون لنا وقفة طويلة مع بعضهم ..

وليبيا ما زالت تتكلم العربية بالرغم من عشرات الغزاة الذين حاولوا فرض لغاتهم بالسيف والمدفع .. وهى مسألة تدعو للتأمل .. فالعرب أتوا غزاة هم الآخرون .. وأتوا

بالسيف .. ومع ذلك تقبلتهم ليبيا مفتوحة الذراعين وتشربت لغتهم وحضارتهم ثم تحولت إلى مدافعة عن العروبة والعربية أكثر من العرب الأوائل الذين غزوها ..

وربما كان هذا هو الدليل القاطع أن ما فعله العرب بالعالم لم يكن نشرًا للعقيدة بالسيف وإنما كان نشرًا لحضارة ..

وما انتشرت العقيدة بالقوة وإنما بجاذبيتها الذاتية وبما حملته للناس من صدق وسماحة ومحبة .. حقيقة بسيطة وساطعة مثل شمس هذا الشاطئ المشرق ..

وما زالت الأمواج تحت قدمي تتلاطم ..

والأيام يتداولها الخالق بين الناس ..

وعاصف التاريخ لن يهدأ ..

لا الإمبراطوريات تظل إمبراطوريات ، ولا العبيد يظلون عبيدًا ..

ترى ماذا تخبئ لك الأيام يا طرابلس ..

يا أعز من أحببت ذات شتاء فى عام ١٩٦٧ ..

الفهرس

صدر للمؤلف

١ - الله والإنسان
٢ - أكل عيش
٣ - عنبر ٧
٤ - شلة الأنس
٥ - رائحة الدم
٦ - إبليس
٧ - لغز الموت
٨ - لغز الحياة
٩ - الأحلام
١٠- أينشتين والنسبية
١١- فى الحب والحياة
١٢- يوميات نص الليل
١٣- المستحيل
١٤- الأفيون .. (سيناريو)
١٥- العنكبوت
١٦- الخروج من التابوت
١٧- رجل تحت الصفر
١٨- الإسكندر الأكبر
١٩- الزلزال
٢٠- الإنسان والظل
٢١- غوما
٢٢- الشيطان يسكن فى بيتنا
٢٣- الغابة
٢٤- مغامرة فى الصحراء
٢٥- المدينة (أو حكاية مسافر)
٢٦- اعترفوا لى
٢٧- ٥٥ مشكلة حب
٢٨- اعترافات عشاق
٢٩- القرآن محاولة لفهم عصرى
٣٠- رحلتى من الشك إلى الإيمان
٣١- الطريق إلى الكعبة
٣٢- الله
٣٣- التوراة
٣٤- الشيطان يحكم
٣٥- رأيت الله
٣٦- الروح والجسد
٣٧- حوار مع صديقى الملحد
٣٨- الماركسية والإسلام
٣٩- محمد
٤٠- السر الأعظم
٤١- الطوفان
٤٢- الأفيون .. (رواية)
٤٣- الوجود والعدم
٤٤- من أسرار القرآن

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حيّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد التنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٣/٨٠٧٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4216-0

١/٩٣/٨٨
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.